
د. أحمد خالد توفيق
53
سافاري
ساحر الكتب
الموت الأصفر

1 ـ خطاب فى الليل ..

(برنادت) أيتها العزيزة :

فى ليل كينشاسا الحار الرطب ، تحت الناموسية المشبعة بالـ (DDT) التى يحاول البعوض اقتحامها للفتك بى ، يبدو الكلام عنك أو معك منعشًا ككوب من عصير الليمون البارد ...

فى ليل كينشاسا الحار الجاثم كالخرتيت على روحى ، أستعيد مشاهد بيتنا الصغير وطفلتنا .. الأزهار التى تستبدلينها يوميًا فى ذلك الأصيص الأنيق .. مدخل البيت الذى زرعت فيه نباتات لا أعرف اسمها ولن أحفظه بعد ألف عام .. مذاق الأطباق التى تطهينها ..

فى ليل كينشاسا الكئيب ، يلذ لى أن أكتب لك هذا البريد الإلكترونى ، وأتصورك وأنت تطالعين السطور . كنت طيلة حياتى أمقت كتابة الخطابات لأنها تجعل الناس يردون .. فأضطر إلى الرد !.. لكننى اليوم أشعر أنها اختراع عبقرى ..

ما زلت أرى ابتسامتك الذكية المتفهمة ، وأسمع قرقرة سارة المحببة وهى نائمة فى غرفتها ترنو إلى السقف وتحلم مع الظلال ..

أنا خلقت كى أكون هناك معك وليس هنا ..

لو كنت أريد الترقى فى عملى ، فالهدف أن أبلغ درجة وظيفية تجعلنى أنا من ينفى الآخرين ولا أحد ينفينى أنا !.. أنا أحب أفريقيا وأحمل لها كل تقدير .. إنها مليئة بالأسرار ويمكن للمرء أن يتعلم شيئًا جديدًا كل دقيقة ، لكن

الحقيقة هى أننى كذلك بحاجة إلى الاستقرار ... أريد نعمة المكان الواحد . بدت لى أنجاوانديرى هى هذا المكان الواحد لفترة لكنهم فى كل مرة ينزعون المسمار ليضعوه فى ثقب آخر.

سوف أحاول أن أنقل لك بعضًا من حياتى هنا ، ولعلنى أنجح فى ذلك ....

كما تعرفين فإن وحدة الكونغو هى سافارى 7 .. أكبر وحدة سافارى فى أفريقيا كلها ، ولسوف تجدين أن وحدة سافارى الكاميرون أقرب لمدرسة أطفال صغيرة .

هكذا يمكن القول إننى صرت أعرف وحدات سافارى فى الكاميرون وكينيا وجنوب أفريقيا والكاميرون ، كما أننى عملت لفترة فى بوركينا فاسو.

المدير هنا أفريقى أسود اسمه آرثر برسين ، وهو من الطراز الذى يجعلك تشعرين أن اللون الأسود هبة .. فهو فاخر لامع له صوت ستريو غليظ مؤثر . أما مساعدته فهى من بقايا الاستعمار البلجيكى لكنها لطيفة فعلًا واسمها (آن ليراى) . هى لا تشبه اللعين (باركر) فى أى شىء لكنها تدخن كمحرقة الجثث .. التوازن هنا واضح جدًا ـ فالمدير أسود ونائبته بيضاء . هذا يحدث فى معظم وحدات سافارى.

الوحدة لها نفس شكل حرف L المميز لكل وحدات سافارى ، وخلفها تقف سيارات الإسعاف .. وهناك مهبط هليوكوبتر كالعادة.. لدينا هنا ثلاث طائرات . لكن المبانى أقدم من أى وحدة سافارى رأيتها مما يدلك على أن ترقيم سافارى 7 لا يدل على ترتيب البناء ، وإلا لكان اسمها سافارى 1.

لى غرفة ضيقة مشتركة مع طبيب ألمانى اسمه (يوهان) .. جاء مؤخرًا .. لا أحب هذا كثيرًا خاصة أننى اعتدت الوحدة هنا ، لكنه على كل حال جراح عظام لا يستقر فى غرفته لحظة واحدة .. الغرفة نظيفة مرتبة بعناية وهناك جهاز تكييف يعمل جيدًا .

نظرًا للتضخم يبدو أن المركز الرئيس فى النمسا يفكر جديًا فى غلق عدة وحدات سافارى منها سافارى 7 .. لحسن الحظ أنهم لا يفكرون فى سافارى الكاميرون بعد . هذا يعنى أن الأطباء هنا فى حالة معلقة بين البقاء والطرد . أمقت هذا الشعور بشدة ، لكن هذا ديدن أى مشروع يعتمد على التبرعات . الصحة مشروع فاشل فى حد ذاته لكن مكسبه يتحقق على المدى البعيد . هذا كذلك يعنى أن بقائى هنا لن يطول ، وهو خبر جيد ..

لماذا انتدبونى هنا إذن ؟

ليس الأمر متعلقًا بنقص الأطباء هنا ، ولكن سياسة سافارى كما تعلمين - تهدف إلى تدوير الأطباء على أماكن مختلفة لتتسع خبراتهم .. نسبة الإيدز هنا عالية جدًا على سبيل المثال ، كما أن البلاد تحمل أعلى نسبة وفيات أطفال فى العالم ، وهو شىء لابد أنه يحزنك .

بالطبع كانوا ينتظروننى هنا بحفاوة بالغة .. الطبيب المصرى العصبى ذو اللحية القصيرة الذى يحب الجراحة ويمقت الأمراض الباطنة .. هذا شخص مناسب جدًا لعنابر الحميات !

صرخت واحتججت وزعمت أن لدى مرض فقدان مناعة ، لكن هؤلاء القوم لا يرحمون ..

هكذا وجدت نفسى وسط الحميات مجهولة المصدر والملاريا المخية والليشمانيا والدرن ... إلخ .. هذه البلاد تتمتع بعدد هائل من الأمراض . لا تنسى يا ملاكى أن الكونغو تعنى أفريقيا ..هناك مستشفى عام فى كينشاسا ، وكثيرًا ما نتعاون لكن الأمر يحتاج لعدد هائل من الوحدات الصحية . الكونغو هى رقم 17 فى وفيات الأمهات ، ونصف الأطفال تحت خمس سنوات يعانون التقزم . مرض النوم قد قضى على نصف تعداد الذين يعيشون حول نهر الكونغو .

معى فى قسم الحميات طبيب كونغولى اسمه رونالد (فالدانو) .. وهو فارع القامة جدًا له عينان واسعتان مندهشتان ، لكنى أشهد له بالبراعة ... أتعلم منه الكثير فعلًا .

هناك طبيب بلجيكى ملتح اسمه (برتران) وهو أقرب إلى السماجة ويمقت الكلام عامة .. إنه الطراز الذى لا يشكرك وعلى الأرجح لا يعتذر أبدًا .. من الأفضل فى تعاملك مع هذا الطراز أن تعتبره أريكة ..

بعد وصولى بيومين جاءت طبيبة فرنسية اسمها (جولييت) .. أعتقد أنها جميلة لكنها مصرة على أن تبدو كذكر بثيابها وشعرها القصير .. معروقة الذراعين يمكنك عد كل عصب وكل عضلة .. لسبب ما تذكرنى بك جدًا برغم نحولها الشديد . تلك الهشاشة الراقية .. ليس لديها جرام من الدهن لا لزوم له .

هناك طبيب هندى اسمه (نظير) .. له لحية مشعثة ويضع عمامة .. بصراحة لا أفهم الوضع القانونى للعمامة هنا بالنسبة لمكافحة العدوى ، لكنه من السيخ ... لا يمكنه أن يكشف رأسه ، وهو الطبيب الوحيد فى مجموعة الحميات الذى تعيش أسرته معه ..

نسيت أن أخبرك أن الحمى الصفراء متوطنة هنا .

هذا مرض وبيل كما تعرفين ، وهناك قسم خاص أقرب لمعزل .. لكن لا تنسى أننا جميعًا أخذنا اللقاح المسمى **D 17** والذى وجدوا أن جرعة واحدة منه قد تكفى طيلة العمر. الحمى الصفراء موجودة فى الكاميرون قطعًا لكن ليس بالكثافة التى تجدينها هنا .. كل الأمراض ليست بالكثافة الموجودة هنا .. وقد كان الجدرى متوطنًا فى حقبة ما قبل سبعينيات القرن الماضى .

الكونغو البلجيكى .. الذى جعل موبوتو اسمه زائير لفترة لا بأس بها ، ثم سرعان ما استرد اسمه القديم ..

لا أعرف ما سيحدث هنا ، ولا هل أمارس عادتى اللعينة فى العثور على متاعب ... لكن الأمور تبدو مستقرة بعد قضية الطبيب (أناتول) الذى أوشك على قتل الوحدة كلها .. لقد جعله ظلم السلطة له يجن .. حكيت لك قصته فى مقال سابق ..

أرجو أن تمر الأيام القادمة فى سلام ... سوف أعود لك بالتأكيد ما لم تلتهمنى الغوريلا أو يبقر وحيد القرن بطنى ...

(برنادت) .. أنا مشتاق لك فعلًا . لا أعرف كم رجلًا فى العالم يحب امرأته لهذا الحد ، لكنى بالتأكيد واحد من هؤلاء .. هذه هى مزية النفى الإجبارى الذى أمر به .. إنه يُبقِى الحب متوهجًا .

***

2 ـ بذور مشاكل ..

(برنادت) العزيزة :

أكره أن أقول إننى بدأت المشاكل ، لكن هذه هى الحقيقة للأسف ..

(يوهان) الطبيب الألمانى الذى يسكن معى فى نفس الغرفة ، شاب فى العقد الثالث من العمر .. له حاجبان كثان وتلك أهم علامة فى وجهه ، ثم وجنتاه البارزتان ، وله شعر طويل يعقصه فى شكل ذيل حصان فى مؤخرة رأسه . قوى جدًّا كأنه مصارع .

بالطبع لم أتشاجر معه لأن لديه ذيل حصان . تشاجرت معه بسبب ملحوظة عنصرية قالها . أو بمعنى أدق تعامل بها .. إنه يطلق علىّ اسم (داعش ISIS) فى مزيج من المزاح والإهانة ..

قلت له فى غيظ إن ISIS التى أعرفها هى ربة الخصوبة والخير المصرية القديمة ، لكنى لا أعرف عن أى داعش يتكلم ..

كان تفكيره خليطًا مضطربًا من الأفكار والانطباعات ، وقد افترض أن كونى عربيًّا مسلمًا ملتحيًا يشير بلا جدال إلى كونى من الإرهابيين . نصف الغربيين فى وحدة سافارى ملتحون .. اللحية لا تعنى شيئًا وإلا لكان (راسبوتين) هو قائد الإسلام العالمى ...

كانت لحظات لقائنا نادرة كما قلت لك .. جراح العظام ينعم بأقل القليل من الراحة فى أى مستشفى . لكنه فعل ما يستطيع كى يجعل اللقاء عاصفًا .

وقد أدركت أن حجمه لن يتيح لى ضربه .. هذه مزية كبرى وإلا لضربته وفُصِلت من الوحدة .. لكنى كنت سأُفصَل بضمير مستريح ..

تعلمت أن الغربيين غالبًا نموذج راق للتحضر ، لكن السيئ فيهم لا يطاق وألعن من أى وغد تجده عندنا .. إنه مزيج من التعصب والغباء والغرور والفظاظة ..

من المهم للوقحين أن يكونوا ضخام الجثة حتى لا يتلقوا علقة ممن يستفزونهم . لو كان هذا الـ (يوهان) أضعف أو أقل وزنًا بضعة كيلوجرامات للاقى ساعات سوداء على يدى .

الحق أنه يذكرنى جدًّا بالإسرائيلى الوغد (أبراهام ليفى) فى وحدتنا . بالمناسبة هناك ثلاثة أطباء إسرائيليون هنا .. فتاتان وفتى . وأعتقد أننى لن أحتك بهم لحسن الحظ ...

قال لى (يوهان) ذات ليلة :

ـ « الحقيقة أن أوروبا مفتوحة أكثر من اللازم ... هناك ثقب فى أوروبا يسمح بتسرب العث الذى يحاول التهام الحضارة نفسها .. أوروبا قارة قررت أن تنتحر »

كان منهمكًا فى حلاقة ذقنه بالآلة الكهربية أمام مرآة صغيرة .. قلت له :

ـ « والعث هو ....؟ »

ـ « كل ما لا ينتمى للحضارة الأوروبية »

أمقت هذا الطراز من الحمقى ... أنا لا أحوى ذرة تعصب ، وأعتقد أننى متحضر جدًّا .. متحضر أكثر من اللازم ، ولا أريد سوى أن تستمر الحياة ، لكن هذا الغبى يصر على أن يجعلنى عدوًّا باستفزازه الدائم ..

تعلمت أنه لا جدوى من الجدل مع هؤلاء متحدثًا عن الحضارة العربية والأندلس واكتشاف الدورة الرئوية والأسطرلاب وكيف أنكم كنتم فى الكهوف بينما نحن نترجم التراث اليونانى والهندى .. إلخ ، فهم ضيقو الأفق إلى أقصى حد .. لهذا أفضل الصمت أو أشتم .. لقد عشت أربعين عامًا فلم أر أى شخص يغير وجهة نظره لأى سبب ومهما سطع الحق بوضوح..

ززززززززززززززززززززززززز ! صوت آلة الحلاقة ..

قلت له فى برود :

ـ « كان هناك واحد مثلك يؤمن أن فرنسا حمقاء بلهاء .. وتتحول إلى دولة تحكمها القردة السود القادمة من أفريقيا »

ـ « من هو ؟ إنه لحكيم »

ـ « كان ألمانيًا مثلك ... اسمه (أدولف هتلر) .. هذه تقريبًا كلماته فى كتاب كفاحى »

كان ككل الألمان يتحاشى ذكر (هتلر) كأنها سبة مشينة .. وقد احتقنت عروق رقبته لدى سماع كلامى . لكنها الحقيقة .. الرجل يردد نفس كلمات (أدولف هتلر) ، ويبدو أن فكرة الآرية المسيطرة والنزعة العنصرية لم تزل تمامًا .. هناك أشخاص يتحاشون الكلام عن (هتلر) لكنهم يتكلمون مثله بالضبط ..

زززززززززززز !

وفى منتصف الليل كان يعود للغرفة .. ينزع ثيابه وهو يلهث ثم أسمعه يفتح خزانة الثياب ويتناول زجاجة صغيرة يخفيها هناك. يجرع منها ثم يلهث ويندس فى الفراش .. إن الخمور ممنوعة فى سافارى لكن من حسن حظه أن رفيق غرفته ليس واشيًا .

ربما بعد ساعة يدوى رنين جهاز البيجر الذى يحمله فى حزامه. ينهض مسرعًا ويلبس المعطف ويهرع إلى قسم الطوارئ .. كنت أقول لنفسى إننى سعيد الحظ لأننى لا أعمل فى قسم ملتهب خطر مثل العظام وأمراض النساء والقلب ..

عندما يعود كان يتربع على الفراش ويمسك بالجيتار ويعزف عليه ألحانًا للبيتلز .. يجب أن أعترف أنه كان عازفًا بارعًا . لم أر عازفًا بارعًا بهذه العضلات من قبل لكنها الحقيقة ..

قلت له إنه جيد فعلًا ، فمط شفته السفلى بمعنى أن هذا المديح لا قيمة له .. هو يعرف قيمة عزفه جيدًا. من السخف أن تتملق هذا الرجل .

عامة كانت هذه أولى مشاكلى فى الوحدة ، وهو شىء طبيعى لأنه ليس بوسعنا أن نصير محبوبين لدى الجميع .

المشكلة الثانية كانت مع علم الحميات المرهق ، خاصة أن عقلى غير مهيأ لحفظ جرعات الأدوية ولا علامات الحميات . كان على أن أتلقى لدغة لا بأس بها فى الأيام التالية .. أتحدث عن اللدغة بمعناها الحقيقى والمجازى ... سوف أحكى لك كل شىء بالتفصيل .

***

3 ـ ثرثرة وبائية ..

(برنادت) العزيزة :

ليس هناك جديد مما يجب أن تعرفيه عن العمل هنا. لكنى رأيت للمرة الأولى حالة من حمى الكونغو ـ القرم النزفية . تذكرت ما تعلمناه من أنها أكثر الحميات النزفية نزفًا . فى الحقيقة لم أر كل هذا القدر من النزف من الأنف والفم وتحت الجلد ، وأنا وأنت لم نر هذا المرض من قبل .. توفى المريض للأسف لكن الخبرة ظلت فى ذهنى لفترة طويلة . تذكرى أن الكونغو يتنافس مع القرم على شرف ادعاء هذه الحمى ، لذا يسمونها فى روسيا حمى القرم والكونغو . الأمر الذى يذكرنى بترتيب أسماء الممثلين فى الأفلام. المرض معروف منذ ١٩٤٠ كما تعرفين لكننا لم نره قط فى الكاميرون على قدر علمى .

هناك كذلك وفرة فى مرض الحمى الصفراء . نحن رأينا بعض الحالات فى أنجاوانديرى لكن ليس بهذه الكثافة ... الواقع أن الحمى الصفراء انتقلت للإنسان من قلب أفريقيا أولًا .

أنت تعرفين أن الحمى الصفراء وباء كاسح ، يقتل نحو ٣٠ ألف بشرى كل عام . لكن من الممكن السيطرة عليه. وبما أننى قد تلقيت لقاح D17 الإجبارى فإننى محصن ضد هذا الوباء اللعين ...

سوف أنعش ذاكرتك .. لابد أنك نسيت هذه الحمى البغيضة النادرة فى الكاميرون ..

إنها تمثل ذكرى عزيزة لكل علماء الفيروسات والأمراض المعدية لأنها أول فيروس يتم فصله فى التاريخ ..

هناك أولًا عضة البعوضة الأنثى (إيدز إجبتى) ـ اسمها يوحى بأنها مصرية ـ التى تلدغ الأصحاء .. يتسرب الفيروس إلى دمهم ، وهو من الفيروسات الصفراء ، وفيروس سى الكبدى ينتمى لنفس الأسرة .. نفس الأسرة تتضمن فيروس الضنك (حمى الدنج) ..

لكننا نعرف جيدًا أن الحمى الصفراء لم تدخل آسيا قط ، كما أن حمى الضنك النزفية لم تدخل أفريقيا قط . انتقل وباء الحمى الصفراء إلى أمريكا الجنوبية مع هجرات العبيد .

تبدأ القصة كمعظم الحميات النزفية بصداع وارتفاع فى الحرارة وألم ظهر .. أعراض عامة جدًّا تشبه الأنفلونزا ، ولكن فى اليوم الخامس ـ وكل الحميات النزفية تنزف فى اليوم الخامس ـ تبدأ أعراض إصابة الفيروس للكبد حيث يحول خلايا الكبد إلى عجين بلا ملامح. إنه لون الصفراء الذى يغزو كل شىء ومنه اشتق اسم الحمى ، ثم النزف من الأغشية المخاطية ومن فتحات الجسم .. تبدأ الهلاوس وعلى الأرجح يكون الموت هو النهاية ..

تشخيص المرض يقوم على تفرقة المرض من الحميات النزفية الأخرى ، وبالطبع من الملاريا .. الملاريا توجد فى نفس الأماكن ولها تقريبًا ذات الأعراض .

تعرفين أنه لا يوجد علاج .. جربوا الإنترفيرون والريبافيرين فى معظم هذه الفيروسات بلا جدوى .. لا يمكن استئصال المرض لأن هناك دورة تتعلق

بالأدغال ، يتم فيها إصابة الرئيسيات .. وهذه تعمل كمخزن للعدوى .. أى أنه كلما قضيت على العدوى ظهرت من جديد ..

يمثل انتقال الفيروس لآسيا كابوسًا مقيمًا لأن البعوضة متوافرة هناك .. يعنى لو قرر الفيروس أن يتخلى عن تحفظه فلسوف يجتاح آسيا . هناك استثناء حدث عام ٢٠١٦ هو ١١ حالة ظهرت فى الصين .. وهى حالات جاءت بالطائرة من قلب أفريقيا . ذات المنطق الذى أدى لانتشار الملاريا حول مطار هيثرو البريطانى .

نفس الفكرة تتعلق بمصر . لدينا حمى صفراء عند الحدود الجنوبية والبعوضة التى تنقل المرض موجودة فى كل مكان . لو تسربت حالة حمى صفراء لمصر لعم الوباء لكن هذا لم يحدث .. ما السبب ؟ السبب هو الستر ورحمة الله ولا أجد تفسيرًا آخر .

الخطوة الأساسية فى العلاج هى الوقاية . مقاومة البعوضة مهمة جدًا .. اللقاح بالغ الأهمية خاصة أنه لقاح فعال فعلًا . على العموم تتشابه طرق الوقاية مع طرق الوقاية ضد الملاريا . الثياب ذات الأكمام الطويلة والجوارب .. المبيدات الحشرية ..

ككل البعوض يهوى بعوض الحمى الصفراء أن يلدغ الناس ليلًا حتى الفجر ، لهذا نوصى الناس بأن يتواروا فى بيوتهم ويلجئوا للناموسيات التى تم تشبعها بالـ (DDT) .

فى عنابر الحميات يمكنك أن تزورى عنابر الحمى الصفراء ، وفيها نحو أربع حالات يتم تمريضها جيدًا مع ناموسيات محكمة ، وأعتقد أنه من الصعب أن

تتسلل بعوضة لتلك العنابر . هذا بالطبع يطمئن المرء لأن المرض لا ينتقل بطريقة أخرى سوى البعوض .. ثياب التمريض والأطباء مشبعة بالبيرثريلم الطارد للبعوض . يتم علاج المرض بشكل عرضى .. لكنهم يتجنبون أدوية معينة مثل الأسبرين ..

يقوم د . (فالدانو) بتجربة بعض أدوية الفيروس سى على هذه الحالات . المنطق هو أن هذا الفيروس ينتمى لنفس الأسرة فمن الممكن أن يموت بنفس الطريقة .. لكن لم ينجح حتى الآن ..

قال د . (فالدانو) :

ـ « نتائج الريبافيرين ممتازة لدى الحيوانات المصابة بالحمى الصفراء لكنه عديم النفع مع البشر .. »

قلت له مقترحًا :

ـ « هناك مصل دم الذين تم شفاؤهم »

ـ « لا يجدى .. جربوه كثيرًا »

فى أول حمى نزفية قابلتها فى حياتى ، وكان اسمها (العيون اللاتى تنزف دمًا) ـ كما تذكرين ـ استخدم أطباء سافارى مصلًا مأخوذًا من دمى وحقنوا به الجميع حتى (أبراهام ليفى) نفسه .. لكن يبدو أن هذه التقنية غير صالحة هنا ..

فى مكان ما فى مختبر ما تكمن الحقيقة .. الحقيقة التى ستشفى ٢٠٠ ألف مريض وتنقذ حياة ٣٠ ألف شخص سنويًا . لكن العالم لم يصل لها بعد ..

أما عن المرضى أنفسهم فهم يبدون أقرب إلى المصابين بفشل كبدى متقدم .. بعضهم ينزف من الأنف أو الجلد ، لكن النزف عامة ليس بشدة حمى الكونغو والقرم كما وصفت لك ..

المشكلة هى اللحظة التى تقرر فيها أجهزة الجسم أن تجن .. يفشل الكبد ثم الكلية وينزف المريض بلا توقف ، ويدخل غيبوبة مخية . هذه هى اللحظة التى يفلت فيها المريض من أيدينا .. عندما يقف الموت عند رأس الفراش ولا يمكنك تدويره ...

بمناسبة الحميات .. لا أريد أن أسبب لك قلقًا لكن الشىء بالشىء يذكر .
عندما صحوت من النوم اليوم شعرت بصداع مروع ..

الصداع خلف محجر العين مؤلم فعلًا ، وغالبًا ما يثير علامات استفهام مقلقة ..

كنت أشعر بغثيان ، لذا ابتلعت بعض الباراسيتامول مع قرص من الميتاكلوبراميد .. ثم بحثت حتى وجدت الترمومتر . كان (يوهان) نائمًا فى عمق ، فأضأت نور الحمام فى هدوء ـ كانت الغرفة بعد مظلمة ـ ودسست الترمومتر فى فمى ..

كانت درجة الحرارة ٣٨ درجة مئوية. تلك الحرارة اللعينة الخبيثة التى يكرهها أطباء الحميات .. عندما تجدين أرقامًا مثل ٣٩ فالسبب يتعلق بالعدوى التنفسية أو الإنفلونزا أو أى سبب سهل .. الحرارة المنخفضة المصحوبة بأعراض تسمم .. هذه علامة كريهة فعلًا . أدعو الله أن أصاب بإسهال فأجد سببًا .
خُراج أميبى فى الكبد ؟.. ليس بهذه السرعة ..

سرطان لمفاوى ؟ الحياة ليست بهذه القتامة ...

أخذت حبة من الليفوفلوكساسين وقررت أن أنسى الأمر ..

عندما جاء المساء كنت قد تحسنت تمامًا ، لكنى قررت استكمال المضاد الحيوى .. لا أريد أن أرتكب غلطة العامة ..

فى الخطاب التالى أحكى لك عن الطبيبة الفرنسية (جولييت) .

***



4 ـ يوم من العمل ..

(برنادت) العزيزة :

كنت أتناول طعام الإفطار فى الكافتيريا .. الطعام هنا لا بأس به والقهوة جيدة .. كنت قد ملأت طبقى بالبطاطس المقلية مع الجبن ورحت آكل فى نهم . سمعت صوتًا رقيقًا يقول :

ـ « هل لى أن أجلس معك ؟ »

رفعت رأسى فوجدت د . (جولييت) . الطبيبة الفرنسية الرقيقة بالغة النحول . كانت تحمل صينية وكوب قهوة وتبحث عن مكان للجلوس . أشرت لها أن تجلس فأنا لم أشتر المكان ..

كان شعرها القصير يذكرنى بالغلمان فعلا ، وكانت معروقة الأطراف تشعر بأنها كتلة أعصاب مجدولة . نظارة رقيقة تتدلى على حافة الأنف وابتسامة دائمة ..

راحت تصب الكاتشاب على الطعام ثم سألتنى :

ـ « كيف كان يومك ؟ »

هكذا بدأت المحادثة .. يمكننى أن أخبرك بأشياء عديدة عنها؛ منها أنها طبيبة أمراض معدية عملت فى معهد باستير بعض الوقت .. غير متزوجة .. تهوى الرسم والأدب وقراءة الشعر .. من (نانت) فى فرنسا ـ بلد جول فيرن ـ وقد كانت تعمل فى وحدة سافارى كينيا .. واضح أنها جاءت بعدى لأنى لم أرها هنالك ..

كان بيننا حديث عن نيروبى وعن كينيا ، وقد اندهشتْ لأننى زرتُ قبائل توركانا وجربت تسلق كليمنجارو ..

ـ « من الواضح أن لديك خبرات مذهلة »

تكلمنا عنك وحكيت لها الكثير .. لن أطلعك عما قلت .. سر !.. لكن لسبب ما ما زلت أشعر بأنها نسخة أخرى نحيلة منك .. هى كذلك ظريفة جدًا ، وقد كونت نظرية تقضى بأن الأشخاص الذين يشبهون أشخاصًا آخرين يشعرون بالأشياء ذاتها التى يشعر بها من يشبهونهم !. لست مجنونًا ... أ يحب ب ... إذا كان أ يشبه ج و ب تشبه د فعلى الأرجح سينجذب أ و ج إلى د .. و د ستجد نفسها منجذبة إلى ج بلا تفسير .. بعبارة أخرى هناك اثنان يشبهاننا ومن الواضح أنهما يميلان لبعض ..

قالت لى :

ـ « أنا سعيدة أنك حار الدماء صاحب انفعالات .. إن التعامل مع آخرين يشعرنى بأننى فى ثلاجة »

فهمت على الفور ما تتكلم عنه .. تعنى البلجيكى السمج (برتران) ... يسعد المرء كلما فكر فى أن البشر ليسوا كلهم (برتران) ..

قلت لها ضاحكًا :

ـ « الشرق أوسطيون أصحاب انفعالات .. ربما أكثر من اللازم .. إن أعصابهم متأججة .. لربما كان ما يحتاجون له بالضبط هو جرعة انفعال أقل »

سألتنى وهى تمتص الكولا بالشفاط من كوب ورقى كبير :

ـ « ما الذى يثير اهتمامك بالحميات لهذا الحد ؟ »

قلت فى حرارة :

ـ « الحميات !... أفضل الموت لو لم أدرس الحميات أو يحيط بى المرضى المحمومون ! »

نظرت لى غير مصدقة فانفجرت ضاحكًا :

ـ « بالطبع وضعت حيث وضعونى .. أنا لا أطيق الحميات ولا أطيق الطب الباطنى أبدًا .. أنا جراح أملك نفسية جراح ويدى جراح . وجودى هنا رمز للشخص غير المناسب فى المكان غير المناسب .. »

كلمتها عن زوجتى الكندية الباسلة (أنت طبعًا !) .. وعن ابنتى التى أهيم بها حبًا ..

جاء الطبيب الهندى (نظير) ، وحيانا وهو يحمل صينية الطعام .. اهتزت لحيته الكثة وهو يجلس .. كان يتناول وجبة الغداء معنا ثم يتناول وجبة عشاء دسمة مع أسرته ليلا...

قال لى وهو يقلب الطعام فى طبقه :

ـ « يبحثون عنك فى قسم الحميات »

ـ « لم أعرف هذا .. لكن لو كانوا يتصورون أننى كائن أثيرى لا يأكل فهم مخطئون »

ـ « هناك بعض حالات سائل نخاع شوكى ، وهم يرغبون فى أن تسحب أنت العينات »

كنت أمقت هذه المهمة المزعجة .. ما زلت لا أشعر براحة لغرس إبرة غليظة فى سلسلة المريض الظهرية .. لقد أجريتها عشرات المرات وفى كل مرة أتوقع كارثة ..

لكن هذه الأمور تكون عاجلة على كل حال ، لذا أنهيت طعامى وحييت صديقتى الفرنسية وصديقى الهندى ، ثم ركضت نحو قسم الحميات ..

قسم الحميات هنا أو المعزل يقع فى الطرف الآخر من وحدة سافارى .. بالضبط عند تقاطع الضلعين لحرف L .. بناية منعزلة تحيط بها الأسلاك الشائكة ، وتوجد قيود عدة للتعامل معها ..

إجراءات مكافحة العدوى نشطة جدًّا فى هذا الجزء ، وهناك ممرضة كونغولية مسنة اسمها (جومافى) تتابع بدقة وصرامة كل روتين المكافحة ، وقد أعطتها سنها مهابة بحيث يمكنها أن توجه اللوم لرئيس الوحدة نفسه ..

وضعت القفازين ووضعت واقى الحذائين قبل أن أدخل ..

هناك فى غرفة العمليات الصغرى كان المريض المسن يجلس فى الفراش وقد أعدت لى الممرضة أدوات البذل ، مع المطهرات وأنبوبى اختبار .. وقد دهنت ظهر المريض باليود لتطهره .. أجريت عملية تعقيم سريعة ثم عدت له .

وضعت القناع على وجهى ، ثم رحت أبحث بأناملى عن مكان دخول الإبرة ..

هنا سمعت صوت أنين ..

رفعت رأسى فى عدم فهم .. المريض مسن أما الأنين فهو أنين امرأة ..

هنا وجدت رئيس التمريض (جومافى) تستند على حافة الفراش وتترنح .. ثم إنها سقطت على الأرض بلا مقدمات .

*****

هناك أرقدناها فى الفراش ، وقمت بقياس ضغط الدم والنبض ..

كانت تكرر بلا توقف :

ـ « أنا بخير .. لم أتناول إفطارًا »

لكن حرارتها كانت مرتفعة وقد أدركت من وجهها أنها مريضة جدًّا ...

قمت باستدعاء د . (فالدانو) ، لأننى شعرت باحتياجى لخبراته . جاء وتفحصها ثم هز رأسه وقال :

ـ « ما زالت فى المرحلة التمهيدية للحمى .. مستحيل أن نعرف ما تشكو منه ، ولربما هو مجرد التهاب فى الحلق أو إنفلونزا »

ومرر يده على شعرها الأشيب المجعد فابتسمت ..

ـ « آسفة للارتباك الذى تسببت فيه »

وحاولت النهوض لكنى أرغمتها فى غيظ على الرقاد . ليس هذا أفضل وقت للاستشهاد ، ولسنا فى أحد أفلام ماجدة القديمة ..

شعرتْ برغبة فى القىء فجلبوا لها مبولة تفرغ بطنها فيها .. وبدا أنها أفضل حالًا . أوصى د . (فالدانو) بأن تُعطى بعض الباراسيتامول مع السوائل ... يجب أن يكون مستوى السوائل فى دمها معقولًا .

ساد الهدوء فعدت أواصل عملى ..

قمت ببذل السائل النخاعى الشوكى من ثلاثة مرضى ، وكتبت تقارير المختبر ...

عندما غادرت قسم الحميات أثار دهشتى حشد من الأشخاص يقفون خارج الوحدة .. اقتربت من الزحام الأفريقى لأفهم ما هنالك ، وسط حشد من اللغات عرفت من بينها السواحلية .. وسط الأشخاص وجدت شخصًا يرقد على

الأرض وهو يتحسس رأسه .. كان مريضًا فعلا.. دنوت منه وتحسست نبضه
فوجدت أن ضربات القلب بطيئة جدًّا . كان محمومًا وهذا واضح تمامًا .

من الغريب أن تلقى حالتين من الإعياء خلال ساعة .. لكن هذا ما حدث ،
وقد خطر لى أنه يوم من تلك الأيام .

على كل حال يصعب جدًّا أن تشخص سبب الحمى من دون تحليل بول
وصورة دم كاملة وربما أشعة على الصدر . غالبًا تكتشف وجود التهاب فى
الحلق .. أو هى بدايات حمى تيفودية فى بلد موبوء .

جاءت د . (جولييت) قادمة من بعيد وهى تلف المسماع حول عنقها ..
قلت لها : إن الجميع مرضى هذا اليوم ..

لم أكن أعرف مدى دقة كلماتى. خلال يومين عرفت أن هناك حشدًا من
الحالات المحمومة فى وحدة سافارى ..

لا تنسى أننى عانيت حمى بسيطة أمس .. صحيح أنها زالت فورًا لكن ما
سبب الحمى أصلًا ؟

هـذه أمور تحتـاج إلـى إجـابة ، ولا شـك أن الأيـام القـادمة ستحمـل
مـا هو أهم ..

***

5 ـ المختبر ..

(برنادت) العزيزة :

خلال يومين بدأ الأمر يتخذ شكل ظاهرة مخيفة .. لقد سقط كثيرون فى الوحدة أكثرهم من العاملين ، وقد قال أطباء المناطق الحارة إن هذه حمى لم تتضح بعد .. ما زالت غامضة ..

أعتقد أن عنابر الحميات ضمت خمسة ممن سقطوا نتيجة الداء .

على أننى كنت أجول فى العنابر حينما لاحظت رئيسة التمريض المريضة (جومافى) ، وكانت راقدة فى الفراش تحاول قراءة صحيفة بالفرنسية .. رأيتها تميل برأسها فجأة على جانب الفراش ، ثم سال خيط من الدم من أنفها .. دنوت منها مسرعًا وتفحصت ساعديها فوجدت الكثير من الكدمات والنزف تحت الجلد . إن لديها استعدادًا نزفيًا مهولًا .

هناك قائمة كاملة بالأمراض التى تحدث هذا المظهر .. أولها فشل الكبد وآخرها التيفوس ..

ناديت (فالدانو) ليرى هذه المصيبة ، فأثارت هلعه .. طلب قائمة كاملة من أبحاث التجلط والنزف وعد الصفائح الدموية ..

كان يردد الكلمة المفزعة :

- « DIC »

انتحيت به جانبًا فى العنبر وتأكدت أن أحدًا لا يسمع ما نقول ، ثم قلت له :

ـ « هذه حمى نزفية بلا شك .. نزف اليوم الرابع مع الصورة السريرية

هل تعتقد أنها الحمى الصفراء ؟ »

قال وهو يجفف عرقه :

ـ « لقد أخذتُ اللقاح .. كلنا أخذنا اللقاح يوم دخلنا سافارى .. واللقاح

لا يفشل. ما أفكر فيه هو حمى الكونغو والقرم »

كان الاحتمال مرعبًا .. فهى حمى وبائية خطيرة ..

أمر بأن تعطى المرأة البلازما .. كان القرار خطرًا بصدد نقل صفائح أم عدم

نقلها .. هل يعطى الهيبارين أم لا يُعطى . لو كان العجوز رفعت إسماعيل معنا

لوجد حلًا .. إن خبراته فى أمراض الدم لا بأس بها .. احتجنا إلى خبير أمراض

دم إسكندنافى يعمل بالوحدة .

هكذا أخذنا عينات من دم الممرضة ، وتم إرسالها لمختبر الفيروسات

الصغير الموجود فى بدروم الوحدة .

على أنه قبل أن ينتصف اليوم كان هناك عامل آخر ينزف من فمه

بلا توقف ... وقد بدأ إعطاؤه البلازما ، بينما رأى (فالدانو) أنه يجب أن يبلغ

وزارة الصحة ومنظمة الصحة العالمية .. الأمر يتجاوز قدراته .. لا بد من معرفة

اسم هذا الوباء ..

ـ « ليس (لاسا) ولا (إيبولا) .. فهو بطىء والمرضى بحالة لا بأس بها »

ـ « ولا يوجد قراض ولا توجد حيوانات تنقل حمى الكونغو والقرم »

كنت قد أنهيت عملى ظهرًا ، فقررت أن أنزل إلى الطابق الأسفل حيث

مختبر الفيروسات ..

مشيت فى ممر طويل حتى بلغت بابًا زجاجيًا كتب عليه (وحدة الفيروسات) ففتحته .. هو من الأبواب ذات الياى القوى التى تحطم الكتف إياها ، وهناك كانت ممرضة كونغولية جالسة إلى الكاونتر .. كيف تبدأ الكلام مع هذه ؟

قلت لها إننى طبيب مصرى وإننى أعمل فى الحميات وأرغب فى معرفة الوحدة ..

قالت لى بفرنسية سمجة :

ـ « للأسف لا نسمح إلا بأشخاص مؤهلين أو عاملين هنا »

لم يكن الموقف مناسبًا للشجار أو الإصرار .. من التهذيب أن أنصرف خائبًا ، لكنى سمعت صوتًا رفيعًا يقول لى :

ـ « انتظر يا دكتور ... »

نظرت للخلف فوجدت رجلًا آسيويًا قصير القامة ، أصفر اللون جدًّا ، وله شعر ناعم ينحدر على كتفيه وعوينات رقيقة .. كان يمد يده لى ويضحك تلك الضحكة الآسيوية المتملقة التى تظهر الأسنان ..

ـ « أنا بروفسور (ناجوياما) .. رئيس هذه الوحدة .. يسرنى أن تكون ضيفى »

نظرت للممرضة المناكفة بكراهية فنظرت لى باحتقار ، فنظرت لها فى اشمئزاز فصنعت بالونًا من اللادن الذى تمضغه وفجرته فى وجهى ... وسرعان ما وجدت نفسى أمشى مع (ناجوياما) ..

قال لى فى مرح :

ـ « سمعتك تقول مصر .. مصر بلد جميل مشمس .. الأهرام .. كل شىء رائع »

سألته متى زار مصر فقال :

ـ « لم أزرها !.. بلد رائع الجمال !.. »

كتمت غيظى .. أكره من يتحمسون لشىء لم يروه .. على أنه راح يحكى بفرنسيته اليابانية قصة طويلة مملة لم أفهم منها حرفًا عن الظروف التى جعلته يعمل هنا .. ألعن نطق للفرنسية هو عندما ينطقها اليابانيون .

قال لى كما فهمت :

ـ « فى طوكيو عملت فى مجال الفيروسات لفترة طويلة ، ثم قررت أن أتجه إلى أفريقيا .. هناك أجد الفيروسات طازجة . وقد كونت فريقًا للفيروسات هنا »

كنت أمشى معه وهو يرينى نحو ستة من العاملين بعضهم خلف المجهر الإلكترونى ، وبعضهم أمام شاشات الكمبيوتر ...كانوا مشغولين جدًا فأعتقد أنهم لم يرونى أصلا ، فقط دفنوا وجوههم فى أكواب القهوة. أرانى ثلاجات كبيرة وحضانات يبدو أنهم يزرعون فيها الفيروسات ... وكان هناك أكثر من جهاز ELISA .. الخلاصة أن المكان بدا أقرب إلى مختبر تحاليل واسع متكامل الإمكانيات ...

اتجه إلى حضانة فتحها فتصاعد دخان النتروجين .. استطعت أن أرى أنبوبًا معدنيًا محفوظًا وسط طبقة من (الفوم) .. قال لى البروفسور :

ـ « هذه عينة من دم مريض بالحمى التى تجتاح الوحدة حاليًا .. نبحث عن الأجسام المناعية المعروفة ثم نستخدم سلسلة البوليمريز للتعرف على الحمض النووى للفيروس »

قلت له فى حذر :

ـ « وماذا لو كان فيروسًا جديدًا ؟ »

ابتسم وقال :

ـ « عزيزى .. لا توجد فيروسات جديدة .. هناك فيروسات لم نكن نعرفها ثم عرفنا كيف نبحث عنها .. حتى الإيدز كان موجودًا فى الدغل منذ ثلاثينيات القرن العشرين .. »

ـ « ولو فشلتم ؟ »

ـ « عندها هناك منظمة الصحة العالمية أو **CDC** .. هما قادرتان على العثور على الفيروس فورًا ، لكن لا أحسبنا سنبلغ هذه المرحلة »

كنا قد أنهينا دورة كاملة فى أرجاء المختبر .. وعدت أرى نفس الأشياء التى رأيتها فى البداية ، فصافحته شاكرًا :

ـ « أشكرك على الوقت الذى منحتنيه يا بروفسور .. فقط أرجو أن تسمح لى بالمرور من وقت لآخر »

انحنى فى إجلال كأننى أتعطف عليهم بالزيارة وقال :

ـ « هذا شرف عظيم لنا ... أنا أحب ليبيا .. بلد جميل »

ـ « أ .. أنا من مصر ! »

ـ « بلد جميل جميل .. سايو نارا .. »

رجل ظريف .. قلتها لنفسى وأنا أمشى فى الممر مبتعدًا ....

***

6 - إنها هى !

(برنادت) العزيزة :

كيف حالك وكيف حال سارة ؟ الواقع أننى بدأت أعشق إرسال الخطابات ، وقد كان يمنعنى عن هذا الكسل .. ثم إن تبادل المراسلات بريديًا كان يحبطنى لأنه لم يصل أى خطاب كتبته لأى عنوان فى حياتى.. هناك نوعان من البشر : الذين تصل خطاباتهم والذين لا تصل !.. لكنى لا أنكر أن البريد الإلكترونى قضى على هذه اللعنة ، وخاصة أنك من الذين تصلهم الخطابات الإلكترونية .. هناك ضرب من الناس لا تصلهم الخطابات الإلكترونية أبدًا ويقسمون على ذلك ..

هنا فى الكونغو .. قلب أفريقيا السوداء .. البلد الذى نعنيه عندما نتكلم عن أفريقيا ، بينما أنت هناك على الساحل الغربى للقارة .. ترى ماذا تعملين الآن ؟

هل (بارتلييه) سليم برغم قلبه المتهالك ؟ هل ما زال (آرثر شيلبى) متبخترًا كما هو ؟ هل ما زال (ليفى) وغدًا ؟ أرجو ألا يكون قد تحرش بك .. هل ما زال (سبالاتزانى) صاخب الصوت ؟.. هل ما زال (باركر) شبيهًا بغراب البين ؟

أفتقد هذا كله ، وإن كنت على يقين أننى مع الوقت سوف أحب الحياة هنا ، وأتأثر جدًا مع اقتراب لحظة الفراق. فقط هى ما زالت لحظة بعيدة جدًا للأسف ...

لحسن الحظ أننى لم أقم بأى مهام ميدانية .. ما زلت أعمل فى الوحدة ولا أغادرها ..

أعتقد أن ترك الوحدة ودخول الدغل والقبائل أشياء تغير روتين الحياة ممتعة بقدر أنها خطرة ..

مثلًا لا يمكن أن تنتهى إقامتى هنا من دون رؤية الأقزام المشهورين .. من دون رؤية الغوريلا ولو فى حديقة مفتوحة ..

عم كنا نتكلم ؟

آه .. كنا نتكلم عن حالات الحمى النزفية الغامضة فى وحدة سافارى ..

قلت إن البروفسور اليابانى (ناجوياما) صار صديقى .. هو صديق كل الناس على ما أعتقد ، وقد قررت أن أزوره مرة أخرى فى محرابه العلمى بعد ما سقط مريضان من الوحدة بنفس الحمى .. نعم كانا مريضين .. أحدهما بالتهاب رئوى والآخر بداء البروسللا المتقدمة ..

لا أعتقد أن للنزف دورًا فيما أصاب المريضين .. لقد أصيبا بالعدوى ..

كانت تعليمات مكافحة العدوى صارمة ، وصارت الكمامات فى كل مكان .. كان الكل يلبس أكثر من قفاز ، وجرى رش العنابر كلها بمبيدات الحشرات والمطهرات ....

ساد جو عام من التوتر ...

ثم جاءت اللحظة السوداء عندما استدعونى لمكتب المدير صباحًا ... سوف أتلقى عقابى .. هذا جزائى العادل إذن. لا أعرف عن أى شىء لكنى أرتجف رعبًا كلما استدعانى المدير ، وأوشك على الصراخ : « كيف عرف ؟ »

إن العالم ملىء بالوشاة .. يشون بأى شىء ؟ لا أعرف بالضبط ...

هناك اجتزت مكتب السكرتارية حيث كانت ثلاث فتيات كونغوليات منهمكات فى كتابة رسائل على أجهزة الكمبيوتر . وعندما دخلت الغرفة وجدت اجتماعًا صغيرًا .. د . آرثر برسين يجلس بقميص وربطة عنق إلى منضدة وقد غرق فى العرق ، أما المديرة (آن ليراى) فتجلس وأمامها مطفأة مليئة بالسجائر وكوب قهوة .. لا أحد يجرؤ على منعها من التدخين طبعًا ..

هناك د . (ناجوياما) .. وعرفت وجوه بعض أطباء الحميات ! ومنهم (نظير) و(فالدانو) و(برتران) و(جولييت) ..

الوجوه ممتقعة والجو العام يجعل أحشاءك تتقلص منتظرة مصيبة ..

أحب صوت (آرثر بيرسين) عندما يتكلم .. هذا الصوت العميق الرنان الذى يذكرك بصوت (دارث فيدر) فى سلسلة حرب الكواكب ، فلا عجب أن صوت (فيدر) كان لممثل أمريكى أسود .. هناك شىء فى صوته يجعل المقاعد تترجرج كأنه تأثير الدولبى ..

قال (بيرسين) :

ـ « هذا اجتماع خارق للعادة ، لأن الأمور بدأت تفلت من أيدينا وأنا بحاجة إلى أدمغة ، لكنى أعتقد أنه لابد من أن تتولى منظمة الصحة العالمية المسئولية من هنا »

قالت (آن ليراى) :

ـ « بروفسور (ناجوياما) قد تمكن من تحديد الفيروس الذى أصاب عددًا من أفراد الوحدة .. كل شىء يقول إنه فيروس الحمى الصفراء .. وقد وجد جسيم (تور) فى كل الخلايا لدى من ماتوا اليوم »

هنا تساءل (نظير) فى دهشة :

ـ « هل مات أحد اليوم ؟ »

قالت بلهجة خطرة :

ـ « مشرفة التمريض (جومافى) توفيت منذ ساعة »

شهق البعض .. وارتجفت .. حاولت تذكر وجهها وشعرها الأشيب المجعد .

يا لها من بداية لليوم ..

قال المدير :

ـ « هناك وقت للحزن والحداد فيما بعد .. لكننا اليوم نتكلم عن وباء حمى صفراء ظهر فى الوحدة »

قال د . (فالدانو) الكونغولى :

ـ « لقد ناظرنا كل الحالات .. كلها تلقت لقاح D 17 وهذا اللقاح لا يفشل أبدًا .. لا يمكن أن يصابوا بالحمى الصفراء. كلهم يحمل المناعة .. »

قالت (آن ليراى) وهى تشعل لفافة تبغ أخرى :

ـ « كل شىء يقول إنها الحمى الصفراء والبروفسور (ناجوياما) وفريقه لا يخطئون »

ساد الصمت ورحنا نتأمل بعضنا .. وباء حمى صفراء يصيب من تم تطعيمهم ضد الحمى الصفراء.. أى كابوس !.. هذا يتركنا فى العراء تمامًا لأن المرض قاتل وبلا علاج ..

قال المدير :

ـ « لقد فعلنا ما يمكن لمكافحة البعوض فى الوحدة .. لا توجد بعوضة واحدة حية .. »

قال (نظير) وعيناه تتقدان :

ـ « هناك بركتا مجار فى الساحة الخلفية .. مياه آسنة كثيرة سوف توفر فرصة لمئات اليرقات »

ـ « قمنا بردمهما فعلا... للمشكلة شطران ... مكافحة البعوض وأماكن توالده ، ثم عزل المرضى بحيث لا يمتص البعوض دمهم .. سوف ننجح فى قطع الدائرة »

قال د . (فالدانو) :

ـ « الأمر ليس بهذه البساطة .. هناك دورات حياة بديلة تمر بالحيوانات .. الموضوع معقد جدًا ويتجاوز قدراتنا »

للمرة الأولى تكلم (برتران) السمج ، فعقد ساعديه على صدره وقال :

ـ « لا بد من إبلاغ منظمة الصحة العالمية »

كان هذا سيئًا .. كلما وجدت وحدة سافارى أنها مرغمة على الاستعانة بمنظمة الصحة العالمية ، برهنت على أنها غير قديرة أو أنها غير متكاملة كوحدة علاجية . لكن للضرورة أحكامًا .. الولد الصغير الذى يتلقى علقة فيستعين بأخيه الكبير الضخم ..

قال (برتران) :

ـ « هل نجرب الريبافيرين مع المصابين ؟ »

طقطق د . (فالدانو) بلسانه :

ـ « لم تنجح أى محاولة لاستعمال الريبافيرين أو الإنترفيرون مع الحمى الصفراء .. لكن لا أرى ما يمنع من المحاولة فلن نخسر شيئًا »

نهض المدير فبدا كأنه زعيم قبيلة أفريقية مهم ، وصاح بصوته الجهورى :

ـ « إذن من يوافق على استدعاء منظمة الصحة العالمية .. فليرفع يده »

فى بطء ارتفعت عدة أيد .. منهم أنا .. امتنع البروفسور اليابانى ونائبة المدير عن رفع اليد ..

كان التصويت واضحًا .. لابد من تدخل المنظمة العالمية ...

الكونغو موطن قديم للحمى الصفراء ، لكن ليس للحمى الصفراء التى تقاوم اللقاح .. هذا يعقد الأمور جدًّا ..

*****

للقاح الحمى الصفراء قصة طويلة . يبدأ العمل بعد عشرة أيام من استعماله . وهو يُعطى للمقيمين فى الدول الموبوءة فى الشهر التاسع من العمر ، كما يتم مع لقاح الحصبة عندنا . واللقاح خطر . قد يقتل فى حالات نادرة جدًّا ..

تم تصنيع اللقاح عام ١٩٣٠ على يد العالم (ماكس تيير) من مؤسسة روكفلر فى نيويورك . ليس لأغراض إنسانية بالضبط بل لتلبية حاجة الجيش الأمريكى أثناء الحرب العالمية . وقد نال العالم جائزة نوبل مكافأة له. هناك لقاح فرنسى آخر تم وقف استخدامه لأنه يسبب حمى مخية . إن لقاح **D 17** يعمل بكفاءة منذ اختراعه ولا يبدو أن العلم سيستغنى عنه . وقد أوشك المرض على الاختفاء من أمريكا الجنوبية .. أوشك !! لأن برامج مقاومة البعوض قد تعثرت هناك .

لقد تلقى اللقاح فى عام واحد أكثر من مئة مليون ، لكن لا يمكن استئصال الفيروس نهائيًا لأن البعوض فى كل مكان كما قلنا ، ولأن هناك مخزونًا فى

الحيوانات البرية .. هذا يميز الدورة الأفريقية .

لا يجب أن ننسى أن بعوضة الحمى الصفراء موجودة فى أماكن عديدة .. مصر على سبيل المثال ، لكن عدم وجود حالات يبقى الحمى بعيدة عنا ولو دخلت مصر لكانت كارثة لأن البعوضة منتشرة جدًا . أى بقعة ماء آسنة على الأرض فى الحمام يمكن أن تجد البعوض يحوم حولها .

البعوضة التى تنقل الحمى الصفراء تنقل كذلك فيروس زيكا وفيروس الدنج (الضنك) . لا يعرف أحد لماذا لا تنقل التهاب الكبد سى برغم أنه يشبه هذه الفيروسات جدًا . لهذا صارت مكافحة البعوضة جوهرية .. لا توجد سياسة وقائية صحيحة إلا بالخلاص من هذه اللعنة .

يعرف كل مختص بالطب الوقائى قائمة من الإجراءات عن ظهر قلب : مكافحة اليرقات .. تربية السمك الذى يأكل اليرقات .. مبيدات اليرقات .. الناموسيات مهمة جدًا ، وكذلك الثياب السميكة التى لا تخترقها لدغة البعوضة ..

على العموم يملك معظم السكان المحليين مناعة ضد الحمى الصفراء ، لهذا فإن الأوبئة تجتاح الغرباء أولًا .. وهى ظاهرة معروفة فى كل الأوبئة المحلية . أنت تعرفين كيف يصاب الغربيون بألعن حالات الملاريا ، بينما يعيش الوطنيون حياة عادية . فى مصر كانت البلهارسيا تفتك بالبريطانيين الذين يتعرضون للماء الملوث ، بينما الفلاح المصرى يعيش حياة عادية تمامًا .. لو لم نتلق لقاح الحمى الصفراء لفتكت بنا جميعًا فى بلد كهذا ..

7 ـ الملعونة ..

(برنادت) العزيزة :

هكذا دارت عجلة الحياة فى سافارى ، وكما ترين هى لا تختلف كثيرًا عن النمط المعتاد . حيث وجدت أنا تظهر المؤامرات والدسائس والأوبئة والقراصنة ....

بدأ عزل الحالات بشكل شبه تام ، كما بدأ إعطاء عقار ريبافيرين المضاد للفيروسات .. إنه مجد مع الفيروس سى لذا من الوارد جدًا أن يجدى هنا .

ظهرت حالتان جديدتان .. وتوفيت حالتان ..

وظهر عدد من أفراد منظمة الصحة العالمية خبراء الأوبئة ، وجوههم متجهمة دائمًا ويجلسون بالساعات على أجهزة الكمبيوتر يصممون خرائط الوبائيات .. كما أنهم عزلوا قسم الحميات وصار دخوله يحتاج لإجراءات تشبه دخول قاعدة عسكرية ..

لكنى ظللت أمارس عملى كما هو .. حياتى لم تختلف كثيرًا . صحيح أننا كنا نرمق بعضنا ونتساءل عن أينا سيمرض أولًا .. لكن عليك أن تؤدى عملك فى النهاية . لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . غير أنك تملكين خيالًا خصبًا ويمكنك تخيل الهستريا التى صرنا نتعامل بها مع أى بعوضة ..

يمكن أن تصرخ ممرضة فى هستيريا ثم يتضح أنها وجدت بعوضة على ساعدها .

كنت واقفًا أمام باب وحدة الحميات أتشاجر مع حارس أمن كونغولى فير

البنية يصر على ألا أدخل فهو لا يعرفنى . أقسمت إننى طبيب هنا لن يبدو

أن ملامحى تعطى انطباع لص متسلل .. حتى البطاقة المعلقة على صدرى لم

ترق له . له عينان غبيتان خشنتان ..

قررت فى النهاية أننى سأعود للمسكن ولو بحثوا عنى لقلت إننى عجزت

عن الوصول لمقر عملى بسبب حارس أحمق .. هنا جاء الطبيب الهندى

(نظير) .. ضحك وربت على كتفى ثم دفعنى لأدخل فلم يتكلم الثور الواقف

على الباب . منظر (نظير) مميز جدًا بعمامته ولحيته وضخامته ، فلو مر من

الباب مرة فلن ينساه أحد ..

دخلنا إلى قسم الحميات حيث كان عليك أن تبدل الحذاء وتضع قناعًا مع

ارتداء قفازين فوق بعضهما .

لقد صار الأمر يذكرنى بأفلام الأوبئة المخيفة ...

هناك كانت عنابر الحمى الصفراء .. لقد اكتسبت مغزى رهيبًا . كانت هذه

الغرف تحوى أمراضًا مسالمة لطيفة مثل التيفود والبروسللا ، فصارت تحوى

الموت .. يمكنك أن تشم رائحته ..

كان رجال الصحة العالمية منتشرين .. يمكننى أن أعرف رجل الصحة

العالمية من بين ألف ..

انتحى بى (نظير) جانبًا .. ثم اقتادنى من ساعدى إلى غرفة إدارية فارغة

لا يوجد فيها سوى فراش كشف ومكتب صغير وستائر ..

جلس إلى مقعد أمام المكتب وطلب منى أن أجلس ...

شعرت بقلق .. هل سيخبرنى بأخبار لعينة جاءت من الوطن ؟ ربما من الكاميرون ؟ دائمًا يتم الأمر هكذا .. ولسوف يطالبنى بالتعقل لأننى ناضج بما يكفى . كنت ممتقع الوجه ألهث ..

لكنه قال لى بصوت طبيعى :

ـ « لابد من تفسير لهذا الذى يحدث »

وافقته على الفور .. وتأهبت لسماع باقى الكلام ..

قال وهو يزيح الكمامة التى تضايقه :

ـ « هناك أسطورة يتداولها العاملون هنا .. ثلث الناس هنا كاثوليكيون كما تعرف ، لكن ديانات السحر الوثنية ما زالت مسيطرة .. هم يتكلمون عن (الموبيتاوا) .. المرأة الوباء .. »

نظرت له فى غير فهم فقال :

ـ « لغة الكيتوبا هى اللغة الأكثر شيوعًا .. تليها لغة اللينجالا .. فى لغة اللينجالا (موبيتاوا) تعنى المرأة الوباء .. وما يقوله العاملون هنا أن لعنة قد حلت بالوحدة .. هناك امرأة قد جاءت وهى تنشر الوباء حيث ذهبت ، بالضبط كما تقضى أساطيرهم .. طبعًا هم لا يؤمنون بالعدوى بل يتكلمون عن أرواح شريرة »

قلت له فى ضيق :

ـ « الداوا .. كل مكان فى أفريقيا يتكلم عن الداوا .. أى طبيب فى سافارى يعرف هذا »

تصلبت لحية (نظير) وقال :

ـ « لكنهم وجهوا إصبع الاتهام فعلًا .. يتكلمون عن د . (جولييت) .. فهى وجه جديد ظهرت الحمى بعده .. نحيلة جدًا كما فى أساطيرهم .. لا تنتمى لأى قبيلة .. »

ـ « من قال هذا الكلام الفارغ ؟ »

ـ « كلهم ! »

ثم ضاقت عيناه وهو يقول :

ـ « أنا أعرف لغة الكيتويا وقد تفاهمت مع بعض العاملين هنا .. يشكون فيها جدًا ، وقد حكى لى أحدهم سلسلة لا بأس بها من مرات ظهور الحمى كلما تواجدت د . (جولييت) فى مكان ما حتى أوشك أن يقنعنى شخصيًا »

حككت شعرى وقلت :

ـ « سيكون هذا أظرف شىء أحكيه لزوجتى »

ـ « ربما .. لكن تذكر أن ريد اكتشف فيروس الحمى الصفراء لسبب واحد : لقد استمع لأقوال الأهالى .. ليس الأهالى حمقى دائمًا »

ـ « وليست هناك امرأة وباء .. »

حك لحيته ونظر للساعة :

ـ « تذكر (مارى) التيفودية فى الولايات المتحدة .. كانت مربية ، وكانت تحمل عدوى التيفود .. لذا كلما عملت فى بيت كانت الحمى تظهر .. ليس الموضوع هراء محضًا كما ترى »

سألته :

ـ « حتى لو افترضنا أن هناك أسطورة بهذا الشكل ، فهل ترى عمل شىء ؟ .. هل نقتل د . (جولييت) ونذيب بقاياها فى الحمض أو نحرقها ؟ »

ضحك وأعاد القناع لأنفه :

- « ليس بالضبط .. فقط أردت أن تعرف ما يقال .. من المفيد أن تعرف ما يفكر فيه عاملو الوحدة .. »

بالفعل هذا مفيد .. المعلومات مفيدة دائمًا ، لكنى أفضل المعلومات التى تدفعك لفعل ما . بالنسبة لهذا الموقف لا يوجد رد فعل سوى السخرية .. نوادر تشبه ما يتم تداوله على المقاهى .

على كل حال نسيت الموضوع ...

نسيته إلى أن جاء الليل وكنت عائدًا إلى غرفتى عبر الممر الذى يحوى غرف الأطباء ، وكنت مرهقًا مشتاقًا إلى النوم . لا توجد وسائل تسلية مهمة فى كينشاسا وهذا يدفعك إلى تضييع وقت الفراغ فى سافارى .. هناك عنابر وعيادات من المستحيل أن أزورها إلا للملل .. من المجنون الذى يهتم بعيادة الأمراض الروماتزمية أو عيادة أمراض العيون ؟ أنا طبعًا ..

عندما مررت أمام غرفة د . (جولييت) التى تقع فى نهاية الردهة ، لاحظت شيئًا غريبًا .. كان هناك رمز غريب ذو طابع بدائى مرسومًا على الباب .. شىء أقرب إلى وجه طوطم بشىء من الخيال ..

وقفت أنظر لهذا النقش الغريب فى غير فهم ..

سمعت صوت خطوات فنظرت للخلف ..

كانت د . (جولييت) عائدة لغرفتها وقد خلعت معطفها أثناء المشى كأنها تتعجل الفراش .. فلما رأتنى أشرق وجهها ودنت لتحادثنى ثم تصلبت .. رأت الرسم على الباب .

ـ « ما معنى هذا ؟ لم يكن هنا صباحًا ؟ »

كانت لدى فكرة تقريبية عن كنه هذا الرسم لكنى أردت أن أتأكد .. وهكذا التقطت للباب صورة بالهاتف المحمول ، ووعدتها بأن أفهم من الكونغوليين معنى هذا الشكل .. فقط عليها أن تنام وتستريح. وقفت متوترة ، ففتحت باب الغرفة وألقيت نظرة بالداخل ... غرفة عطرة امتلأت جدرانها باللوحات التى رسمتها (جولييت) وموكيت أزرق جميل وفراش مريح .. لا يوجد مختبئون ..

أغلقت البـاب عليهـا ثـم هرعـت إلـى قسم الحميـات .. كنت أعرف أن د. (فالدانو) ما زال هناك ساهرًا .. لقد تركته منذ عشر دقائق . كان هو الأسود الوحيد الذى يمكن أن أثق به ، بعد ما مات (أناتول) العزيز ..

كان هناك فى المكتب الذى كنت أجلس فيه أنا و(نظير) ظهرًا .. وكان يراجع أحد المراجع المهمة .

قلت له وأنا أعبث فى الهاتف الجوال :

ـ « هل لهذا الرسم معنى عندك يا دكتور ؟ »

وعرضت عليه الصورة ... نظرة اهتمام لا شك فيها .

نعم .. كما توقعت .. علامة اللعنة .. ابتعدوا أيها الحمقى .. لا تتعاملوا معها بأى ثمن .. لا تدنوا من هنا فالشيطان ينتظر فى حماسة ..

قال لى فى قلق :

ـ « متى وجدت هذه العلامة ؟ إنها علامة التحريم لدى الوثنيين هنا »

قت له وأنا أغلق الهاتف :

ـ « هذه علامة وجدناها على باب طبيب فى سافارى »

إذن هو مكروه جدًا .. مكروه لدرجة أنه فى خطر .. قل له أن يأخذ الحذر »

شكرته كثيرًا ووعدته بأن أفعل اللازم ... سوف أحذر هذا البائس ..

ثم إننى انصرفت متجهًا إلى ردهة مساكن الأطباء .

كانت رائحة الشياط تزكم الأنوف .. هناك دخان فى مكان ما ..

ونظرت للأرض لأرى الدخان يحيط بقدمى .. من أين هو قادم ؟ دقيقة ثم راحت أجهزة إنذار الحريق تعوى ..

انطلقت أجرى وقد خمنت مصدر الحريق ، واندفع معى بعض رجال الإطفاء قادمين من مكان لا ... كانوا يحملون أسطوانات الإطفاء ..

هناك من تحت باب غرفة د . (جولييت) كان الدخان يتصاعد بكثافة .... صوت سعال بالداخل ...

حريق بالداخل .. لا يجب أن تكون عبقريًا لتدرك ذلك . وعندما نظرت للأرض تحت فتحة الباب كان سائل يسيل بغزارة ..

دفعت الباب بكتفى .. لم يستجب .. هشم كتفى فقط . هذه الأمور تبدو سهلة فى السينما . وجهت ركلة للباب فهشمت قدمى .. ثم ظهر رجل أمن ضخم الجثة حاملًا فأسًا من مكان ما وانهال على خشب الباب . ثم واصل التهشيم بأسطوانة الإطفاء ..

عندما انفتح الباب كانت الغرفة الهادئة الرقيقة كما رأيتها منذ عشر دقائق قد تحولت لجحيم دانتى . لو رأتنى خالتى لقالت إننى حسدت الغرفة بعينى الصفراء .. لقد جعل الحسد الغرفة تشتعل فى زمن أقل من ساعة ..

هناك عند النافذة المفتوحة كانت د . (جولييت) تستند بظهرها وتصرخ .. واضح أننا لو تأخرنا لوثبت من النافذة . كانت تلبس ثيابًا خفيفة شفافة مما يدل على أنها كانت موشكة على النوم ...

أدركنا على الفور أن مصدر النيران هو ذلك السائل على الأرض ..

غرقت الغرفة فى سحابة كثيفة من الرغاوى ، بينما وثبت أنا برشاقة لأجذب الطبيبة . كانت تزن خمسة كيلوجرامات فحملتها بين ذراعى مثل كينج كونج وأسرعت إلى الباب ، بينما كان الحريق قد انتهى تقريبًا . احترق الموكيت وملاءة الفراش .. لكن هذه أفضل نتيجة ممكنة.

كانت تبكى وترتجف .. قالت إنها دخلت الفراش وكانت تتصفح (التابلت) الخاص بها عندما شعرت بالحريق .

قال رجل الأمن ضخم الجثة :

ـ « هناك من سكب البنزين تحت فتحة الباب ثم دس عودًا من الثقاب .. لقد زحف اللهب إلى الداخل »

هذه تشبه الطريقة المصرية عندما تسكب الكيروسين تحت الباب ثم تلقى بعود ثقاب مشتعل من شراعة الباب .. أسلوب بلطجية معروف ..

لقد كان الانتقام سريعًا من (الموبيتاوا) .. وضعوا العلامة وخلال ساعة بدأت محاولات إحراقها ..

من مكان ما ظهرت نائبة المدير (آن) ، وقد انتقلت لها الأخبار حول الحريق الذى كاد يلتهم الطبيبة .. راحت تبعد الواقفين فى عصبية ، ثم دنت من (جولييت) :

ـ« هل تدخنين فى الغرفة ؟ »

قالت (جولييت) بصوت ممزوج بالسعال :

ـ« لا .. »

قلت لها وأنا أجفف عرقى :

ـ« هناك من حاول حرقها وهى نائمة »

صاحت فى هستيريا ملوحة بيديها :

ـ« يا للسماء !.. من فعل هذا ؟ »

بالطبع هناك ألف احتمال . أى وثنى من العاملين فى الوحدة يعتقد أنها (الموبيتاوا) وأراد أن يقتلها لينهى الوباء .. بصراحة لو كنت أؤمن بشىء كهذا لقتلتها أنا نفسى ..

قال رجل الأمن :

ـ« أرجو أن يعود الجميع لعملهم .. إن الشرطة قادمة حالًا »

وتفرق الجمع ..

فقط لم يتلاش الدخان الذى حرق رئاتنا جميعًا ... لم يتلاش التوتر والهلع .. لم يتلاش السعال .. لم يتلاش الوباء المحدق بالوحدة ..

* * *

8 ـ هذيان ..

الجزء التالى ليس من خطابات علاء ل(برنادت) :

هناك أشياء عدة لا يخبر المرء زوجته بها . مثلًا هو لا يخبرها أنه سرق .. لا يخبرها أنه يحب امرأة أخرى .. والأهم أنه لا يخبرها بإصابته بالحمى الصفراء . نصيحتى لك لو أصبت بالحمى الصفراء أن تتكتم الأمر ، فمعرفته لن تفيد أحدًا .

لقد شعرت فى البداية بأعراض قصيرة مبهمة مما يطلقون عليه (فيروس ٢٤ ساعة) وتعاطيت الليفوفلوكساسين فتحسنت . كان الموضوع يتعلق بارتفاع فى درجة الحرارة وصداع .. لا يوجد شىء مهم ..

على أننى عدت لغرفتى بعد حادث الحريق ..

جلست أطالع بعض المجلات المصورة ، وهى طريقة ممتازة لتظفر بنوم هادئ . بعض التفاهة لن تضر أحدًا . ثم أغلقت النور ..

كان نومًا مرهقًا غارقًا فى العرق والكوابيس .. وكانت هناك نقطة معينة فى الحلم (مثل رجل له أنف من نحاس) أتمسك بها ويبدأ الحلم ، ثم أكتشف أننى نسيت البداية .. لم يعد هناك رجل له أنف من نحاس . هناك فتاة شعرها أزرق .. ثم أتذكر الرجل من نحاس فأعود له .. عندها أتذكر أننى نسيت الفتاة .. بم كانت تمتاز ؟

كنت أموت من العرق والحر ...

جهاز التكييف يعمل بصورة جيدة لكن الحرارة قادمة من داخلى ..

هذا الغثيان ...

نهضت إلى الحمام فأفرغت معدتى .. وخطر لى وأنا أعود للفراش أن حالتى ليست طبيعية . قدماى لينتان والأرض عالية توشك على لمس ذقنى ...

نسمم ..

نمت .. وبعد ربع ساعة نهضت لنزع منامتى وأنام عارى الصدر ..

عطش ....

الصداع يوشك على تفجير رأسى .. صداع مروع . خطر لى إننى على وشك الإصابة بنزف مخى .. لابد من قياس ضغط الدم ..

سمعت حركة وأضاء أحدهم النور الكهربى ..

كان هذا هو (يوهان) طبيب العظام الألمانى . عاد من العمل فوجد أن الحجرة باردة لكنى شبه عار . وضع يده العملاقة على جبينى وهتف :

- « أنت محموم !.. لابد أن حرارتك ٣٩ مئوية »

قلت له وأنا أرتجف :

- « أشعر ببرد شديد ! »

- « هذا متوقع ... محموم مع قشعريرة .. وجهاز التكييف يعمل بأقصى طاقة له . سوف تصاب بالتهاب رئوى »

قلت له وأنا أرتجف والكوابيس تلحق بى ، وتختلط بوجهه :

- « هلا ناولتنى بعض الباراسيتامول ؟ »

أعاد ارتداء المعطف وقال وهو يتجه للباب :

ـ « سوف أقدم لك أكثر من البارسيتامول .. أنت تعانى غالبًا من الوباء الذى حدثونا عنه »

قلت وأنا أفتح عينى بصعوبة لأن الضوء يعمينى :

ـ « حمى صفراء ؟ أنا أخذت اللقاح .. »

ـ « وكذلك كل من أصيبوا بها .. سوف أبلغ د . (رونالد فالدانو) »

كنت أفكر .. هذه إذن من الحميات ذات المسار الثنائى .. مُنحنى الحمى يشبه الجمل ذا السنامين .. مرضت .. تحسنت .. مرضت .. هذا لو كانت نفس الحمى التى أصابتنى من أيام معدودة ..

كنت أزداد سوءًا .. وشعرت بأن حالتى سيئة فعلًا ...

هناك كانت د . (جولييت) تتقدم منى فى ثبات عبر محيطات القىء لتقول لى :

ـ « أنا سعيدة أنك حار الدماء صاحب انفعالات .. إن التعامل مع آخرين يشعرنى بأننى فى ثلاجة »

فعلًا أنا حار الدماء .. أعرق بغزارة .. أتنفس بصعوبة ..

كنت أعرف جيدًا أننى أمر بحالة هذيان الحمى **Delirium** .. مزية أن تكون طبيبًا أنك تعرف ما يحدث لك وقت وقوعه ...

كانت هناك محفة .. كان هناك رجلان ضخمان يتعاونان على حملى لأرقد على المحفة .. كانت هناك ممرضة .. كان هناك ممر طويل تحت الأنوار الكشافة . كان هناك من ينظرون لى من أعلى فى شفقة وتهيب . كانت هناك غرفة كتب عليها (معزل) ..

قلت لنفسى إن رجل الأمن سوف يمنعنى من الدخول ، لكنه أفسح لى على الفور .. رأيت (برتران) يميل علىّ ويتكلم . رأيت د . (فالدانو) بوجهه الأفريقى المتعاطف الوسيم ينحنى علىّ . رأيت دمعتين فى عينى (جولييت) .. رأيت زجاجة المحلول .. كنت هناك أنظر للسقف وأقول لنفسى إننى على الأرجح لن أموت . لقد مررت بهذا الموقف مرارًا . سوف تشفى يا علاء ، وحتى لو لم تشف فالموت بهذه الطريقة لا يبدو مرعبًا .. فقط ستضل طريقك وسط المزيد من الهلاوس والرؤى .. ثم الظلام النهائى ..

سوف أذكر دائمًا وهج الكشاف النيون فى السقف .. جو الهلوسة العام .. وجوه الممرضات ..

كنت أغيب فى الهذيان ثم أعود ..

ثم بدأت أتبين أين أنا ...

أنا فى كوبا فى نهاية القرن التاسع عشر ....

أنا جندى أمريكى ....

لا شك فى هذا ...

***



9 ـ فى الأحراش ..

الجزء التالى ليس من خطابات علاء ل(برنادت) :

العام ١٨٨١ ..

الثكنات حارة .. العرق يغمر كل شىء . أنا أجلس بالسروال فقط أنظف فوهة بندقيتى بسيخ عليه قطعة من اللباد ، وأدخن سيجارًا كوبيًا غليظًا . زملائى من الأمريكيين يقوم بعضهم بتلميع حذائه أو ينظف بندقيته . إن التفتيش قادم بعد دقائق والكولونيل لا يتسامح فى أمور كهذه ..

جلس (هنرى) فتى ألاباما جوارى .. (هنرى) شاب طويل نحيل كبير الأطراف .. له لحية شقراء مشذبة بعناية .

كان يلهث والعرق يغمر وجهه.. تحسس جبينه وقال :

ـ « أنا مرهق .. أعتقد أننى مريض »

رددت عليه مطمئنًا :

ـ « لعلها الملاريا »

قال وهو يتحسس جبينه :

ـ « لا .. أنا أعرف الملاريا جيدًا .. أعتقد أنها الحمى المنتشرة بين الجنود .. »

كان هذا يثير القلق فى النفوس ... الجندى يصاب بحمى ووعكة بضعة أيام .. ثم يشفى يومًا .. بعدها يبدأ النزف من فمه وأنفه ويصير لونه أصفر كالليمونة .. ثم تفوح منه رائحة عفنة ويموت ..

الحمى الصفراء .. لعنة أمريكا الجنوبية ..

لم يكن أحد يعرف كيف تنتقل ..

جاء (بورتمان) زميلنا من أراجون .. له علامة مميزة هى اتصال شاربيه بسالفيه .. جلس جوارنا وأشعل سيجارًا آخر ، وقال :

ـ « هذه الحمى تنتقل بالبعوض .. »

قال (هنرى) ساخرًا :

ـ « مرض ينتقل بالبعوض ؟ أنت تمزح .. الحمى الصفراء والملاريا ينتقلان بالهواء الفاسد »

قال (بورتمان) فى عناد :

ـ « د . (كارلوس فينلاى) قال لنا إن الأهالى جميعًا يؤمنون بوجود بعوضة .. »

ـ « فينلاى كوبى .. ماذا يعرف هؤلاء عن الطب ؟ »

ـ « يعرفون كل شىء عن أمراض بلادهم »

قال (هنرى) وهو يرتجف :

ـ « الولايات المتحدة أرسلت لنا طبيبًا عسكريًّا أمريكيًّا .. هذا رجل بارع أثق به .. اسمه (والتر ريد) »

ـ « (والتر ريد) ؟ »

*****

للأسف لم يعش (هنرى) حتى يرى (والتر ريد) . كان هناك فى الدغل مدفونًا فى ظل شجرة وقد وضع صليب على قبره . بالواقع كان هناك حشد من الصلبان .. المرض كان يحصد الجند حصدًا .. كثيرون لن يعودوا للوطن ،

فسوف يُدفنون هنا .. لم يموتوا بالطلقات بل بذلك القاتل الغامض الذى يحمل خطرًا أكبر من قذائف المدافع ..

كان الوضع يزداد خطرًا وأثناء حفر قناة بنما كان خمسون عاملًا يموتون فى كل يوم تقريبًا .. وقد فشلت فرنسا فى حفر القناة بسبب هذا العائق البيولوجى .

هنا فقط طلبت الحكومة الأمريكية من (والتر ريد) أن يذهب لكوبا ..

طب المناطق الحارة هو علم يوشك أن يحتكره الأطباء العسكريون ، فالجنود يغزون بلدًا جديدًا ثم يبدءون فى الموت .. هنا يستغيث القادة بالأطباء ، وسرعان ما يكتشف سر حمى مالطا .. البلهارسيا .. الليشمانيا .. الحمى الصفراء .. الملاريا .. مرض النوم .. إلخ ...

هكذا جاء اليوم الذى وقفنا فيه فى الشمس فى وضع انتباه ، ثم ظهر الميجور (ريد) .. أدركت أنه نحيل أسمر له شارب رفيع كشوارب الأوغاد فى السينما ـ وهذا انطباع خادع طبعًا ـ ونظرات مصممة . جوار (ريد) يمشى طبيبان عسكريان كوبيان هما (لازيار) و(أجرامونتى) .

وقف (ريد) ينظر فى عيوننا ثم صاح :

ـ « أنتم أمريكان شجعان وأعرف أن بوسعى الاعتماد عليكم »

قال (لازيار) الأقل رتبة :

ـ « نحن نحاول البحث عن طريقة انتقال الحمى الصفراء »

قلت لنفسى ساخرًا إن هؤلاء الشباب سيلقون حتفهم بالحمى الصفراء قبل أن يدرسوها .. لكن لو قال مجنون ما إن هناك مرضًا ينتقل بالحشرات فلسوف أجن غيظًا .. الحشرات لا تنقل أى مرض .. كل عاقل يعرف هذا ...

في الأيام التالية جعل (ريد) حياتنا جحيمًا .

لقد قام بتنظيف العنابر ورشها بالمطهرات . وتأكد من حرق جثث الموتى ومستلزماتهم ..

لكن الوباء ظل شرسًا يفتك بالجميع ، وقد قلت لنفسى إن هذا الوباء قد ينتقل بطرق عدة لكن الهواء الملوث ليس من بينها .. الهواء نقى فى المعسكر كله ..

الحقيقة أن (ريد) لم يكن ينام . ازداد نحولًا وشحوبًا وبدا لى أن كل حالة حمى صفراء تأخذ عامًا من حياته .. لو مات بالحمى الصفراء فلن يلاحظ أحد .

كان يجوب المعسكرات كلها يناظر الحالات التى ظهرت بين الجنود .. يتفقد العنابر ويتأكد من نظافتها . والحقيقة أن هذا يعتبر لعبًا مع الموت ، فلا يوجد لقاح أو علاج للمرض . وجاء (كارلوس فينلاى) ليقول فى ثقة :

- « الأهالى مصرون على أنه البعوض »

قال (ريد) :

- « لم يثبت فى التاريخ الطبى أن البعوض ينقل أى مرض »

- « إذن نجرب هذه الفرضية .. على الأقل يمكننا نفيها بشجاعة فيما بعد »

*****

وقف (ريد) أمام الجنود وتحسس سيفه المتدلى على جانبه وقال بصوت جهورى :

- « التجربة التى نحن بصددها خطيرة جدًا .. أنا بحاجة إلى ثمانية جنود شجعان .. شجعان لدرجة التضحية بحياتهم »

ونظر لنا ..

ساد الصمت .. نحن جنود وقد جئنا هنا لنموت أو لنحارب وسط الرصاص لكننا لم نأت لنكون فئران تجارب .. على أن التردد حاجز ينهار بسهولة مع أول طرقة ثم يتهاوى كله ..

تقدم (بورتمان) ليقف أمام (ريد) ويؤدى له التحية العسكرية :

ـ « أنا جاهز يا سيدى .. »

ـ « أنت رجل شجاع »

هنا تقدم جنديان آخران وأعلنا التطوع ..

لا أدرى أى قوة شيطانية جعلتنى أخجل من نفسى . تقدمت بخطوات ثابتة وأنا أشعر كالموشك على الإغماء وأديت التحية العسكرية :

ـ « أنا معك يا سيدى »

لم يعد التراجع ممكنًا على كل حال ..

وقام (ريد) بأخذ موافقة مكتوبة من كل جندى سيشترك فى التجربة ، وهى أول مرة يتم فيها هذا الفعل فى التاريخ .

كان علينا أن نسحب أعواد خشب لنعرف من سيذهب للكوخ أ ومن سيذهب للكوخ ب ..

كانت تجربة مصممة بدقة وعناية تدل على تفكير علمى ممتاز .

هناك الكوخ أ وهو كوخ نظيف تمامًا . الأرض مكنوسة والملاءات ناصعة البياض والطعام صحى . فقط هناك أحواض يتناسل فيها البعوض .. لحسن حظى لم أكن من الأربعة الذى اختاروا هذا الكوخ .

الكوخ ب هو ألعن كابوس قذر يمكن تخيله .. كان من تعس حظى أن وقعت فى هذا الكوخ . الغبار فى كل مكان .. وهو غبار مأخوذ من عنابر الحمى الصفراء. الوسائد متسخة والملاءات ملوثة بدم وقىء من ماتوا بالحمى الصفراء .. أطباق الموتى وأدوات طعامهم .. كل شىء ملوث بالإفرازات ..

فقط تميز هذا الكوخ بمزية واحدة هى أنه لا يوجد بعوض فيه ... أبيد البعوض تمامًا مع وضع شبكات سلك محكمة على النوافذ والأبواب .. أى أن المقيم هنا يمكن أن يموت بأى طريقة ممكنة لكن ليس بلدغ البعوض .

كدت أفرغ معدتى من الاشمئزاز .. وسألت (ريد) وأنا أتماسك :

- « هل .. هل نظل هنا طويلًا يا سيدى ؟ »

- « أسبوعين ! ... هذه فترة كافية ! »

كان هذا ألعن خبر سمعته فى حياتى ..

قال لى فى مرح :

- « سنعطيك كمية ممتازة من السيجار الكوبى الفاخر .. إن رائحته ستقضى على أى رائحة أخرى لكنها لن تطرد البعوض »

سيكون علىّ أن أكتم تنفسى وأن أنام على الأرض . لكن (ريد) السادى قد حرص على أن يرش الأرض بطبقة غبار كثيفة مأخوذة من قبور من ماتوا بالداء ..

الآن عرفت لماذا جعلونى أوقع .. من الوارد أن أرفض كل هذا لدى بدء التجربة .

* * *

10 ـ الكابوس يتقدم ..

الجزء التالى ليس من خطابات (علاء) لـ (برنادت) :

فى جزيرة (بربادوس) كان أول ظهور للحمى الصفراء فى الأمريكتين ثم إنها ظهرت فى شبه جزيرة يوكاتان فى المكسيك . وفى العام ١٧٤٤ أطلق على المرض الغريب الذى يجعل الدم ينزف من كل مكان .. أُطلق عليه اسم الحمى الصفراء .

يزحف المرض الرهيب عبر البرازيل ، وقد وجدوا أن مزارع القصب الجديدة قد أنعشت البعوض ..

فى العام ١٨٦٦ يظهر المرض فى نيويورك بالولايات المتحدة ، وهذا نموذج غريب لظهور المرض فى قطر غير حار . بعد هذا ظهر المرض عدة مرات فى نيو أورليانز حيث توجد اليوم مجموعة مقابر تذكارية لضحاياه . وكان آخر وباء أمريكى شمالى عام ١٩٠٥ . يقال إن الحمى الصفراء هى سبب نقل الحكومة ورئيس الجمهورية واشنجتون لمقر العاصمة من فيلادلفيا ـ التى كانت العاصمة أولًا ـ إلى موقع واشنجتون الحالى . أى يمكن القول أن فيروسًا حدد مكان عاصمة الولايات المتحدة ، ولولاه لكانت فيلادلفيا هى العاصمة .

كان هناك وباء رهيب فى جبل طارق كما كان هناك وباء شرس فى برشلونة عام ١٨٢١ .

لقد كان هذا الوباء قادرًا على قهر الجيوش كما فعل الطاعون من قبل ...

أرسل (نابليون) جيشًا إلى أمريكا الجنوبية ، فلم يعد سوى ثلث هذا الجيش بسبب الحمى الصفراء .. وهو تقريبًا نفس ما حدث لجيشه فى حصار عكا .

لقد اعتاد الوباء المخيف أن يغادر أفريقيا إلى أمريكا ، لكنه ـ لسبب ما ـ لم يدخل آسيا قط .. ربما لأن لون بشرتهم الأصفر قد خدع الوباء الأصفر ...

*****

كنت أرتجف والحمى تعصف بى ..

كنت بحاجة إلى جرعة ماء ..

كنت بحاجة إلى يد باردة تمسك بيدى ..

عندما فتحت عينى فى الظلام والعرق همست مناديًا (برنادت) :

ـ « أنا بحاجة لك ! »

أنا بحاجة لسارة الندية الرطبة .. أريد أن أبلل بها شفتى ..

سأموت وحدى هنا فى قلب أفريقيا المظلم .. قلب الظلام كما وصفه (جوزيف كونراد) . وحيدًا فى بلد لا تعرف لغتى وعاداتهم تختلف عن عاداتى ...

جثة مكفنة تنقل فى تابوت إلى مطار القاهرة حيث ينتظر أخى ...

(برنادت) تبكى بالثوب الأسود .. ستبدو فاتنة بحق .. أسود على أبيض ..

الحمى .. موجات من الغيبوبة تعصف بى ..

فى الظلام أسمع صوت د . (فالدانو) يقول لمدير الوحدة :

ـ « إنه قوى .. النزف لم يبدأ بعد »

ـ « ولو نزف ؟ »

ـ « سننقل له دمًا وصفائح ونعامله كفشل كبدى .. لو بدأ النزف فلربما أفلت من يدنا »

مددت يدى وتحسست أنفى .. لا يوجد بلل .. أنا لن أنزف .. لقد خضن
قبل هذا تجربة فيروس العيون اللاتى تنزف دمًا فى الكاميرون .. لقد نجون
برغم كل شىء ... مناعتى قوية .. صدقونى ..
خذوا دمى واحقنوه فى كل مريض هنا .. لسوف يشفون جميعًا سترون
موجات الغيبوبة تحملنى من جديد عبر الزمن والمسافات ..
إلى كوبا .. إلى العام ١٨٨١ ...
أنا هناك فى الكوخ ب ..

*****

أى حياة قذرة هى !
أنا أفضل الموت أيها الكولونيل ..
الملاءات مبقعة بدم صار أسود تمامًا .. وآثار القىء الذى كان أصفر ..
لا أريد ملاءات .. سأنام بلا غطاء ..
الأرض مليئة بإفرازات جافة ...
الغبار فى هواء الغرفة مع رائحة أحشاء الجنود الأربعة .. الجنود الأمريكان
الذين لم يعودوا يتحملون ، وصرخ أحدنا وهو يركض نحو الباب :
ـ « أخرجونى من هنا !.. أنا منسحب .. لا أريد ! »
لكن الباب موصد جيدًا بجنزير .. وهناك حراسة محكمة ..
راح الغبار يتساقط من الباب المتسخ ، وجرح قبضته .. قلت له أن يتحمل
نتيجة اختياره كرجل ..

حتى الطعام يبدو كئيبًا كريهًا ، وهم يدخلونه لنا عبر نافذة صغيرة ..
أدوات الطعام ملوثة طبعًا .. وكنا نراقب العالم الخارجي عبر السلك الشبكى
الشبث .. نرى المعسكر وتدريبات الجنود .. ونشتهى الموت ..

لم نكن نتصور مدى نظافة وراحة الكوخ أ .. حيث الملاءات ناصعة البياض
لها رائحة المنظفات ، والطعام نظيف والأرض خالية من التراب .. لكن كان
مغلقًا أيضًا لا يسمح بحرية التنقل ، وقد تضايق الجنود لأن البعوض كثير
فعلًا .. ليلًا نهارًا يقتلون البعوض ..

النوم مستحيل مع كل هذا الأزيز ..

هكذا مر أسبوعان على الفريقين ...

لم أعرف أن الوقت قد مر .. كنت أحسب أننا متنا ودخلنا جهنم حيث
الجحيم الأبدى ، إلى أن سمعت صوت (ريد) بالخارج وهو يصدر أوامره بفتح
الجنزير ..

دخل (ريد) والرجال إلى الكوخ وكتموا أنفاسهم بسبب الرائحة الكريهة ..
لقد تحول المكان إلى مدفن فئران من الرائحة ..

سعل وبصق وقال لنا :

ـ « هل أنتم بخير ؟ »

قال أحدنا وهو يتصب :

ـ « بخير كأى واحد يعيش فى بركة قىء يا سيدى »

ـ « هذا جميل »

كان الأمر واضحًا .. كلنا مشمئزون متقززون كريهو الرائحة ، لكننا جميعًا في حالة صحية ممتازة .. لا يوجد مرضى ..

قال (ريد) لـ (لازيار) :

ـ « سجل هذا .. الكوخ ب كلهم بخير »

ثم أنه تحرك مع الرجال ، بينما خرجنا نحن من الكوخ الجحيمي غير مصدقين . فتح أحدهم جنزير الكوخ النظيف أ ... وتصلب الكل ..

بالداخل كان الجنود جميعًا ممددين على الأرض وسط برك من الدم الذي نزف .. مات اثنان من أربعة ..

ولم يجد أحدهم القوة في نفسه ليقول شيئًا ..

قال (ريد) لـ (لازيار) :

ـ « الكوخ أ .. كلهم أصيبوا بالحمى الصفراء »

النتيجة واضحة .. نظافة ببعوض معناها الحمى الصفراء .. قذارة بلا بعوض معناها لا حمى صفراء ... لقد تم البت في الأمر ..

هتف (لازيار) بلهجته الأسبانية :

ـ « لقد أجبنا عن السؤال .. »

لكن (ريد) لم يعلق ..

كان مجنونًا ككل العلماء .. وقد ظلت التجربة تؤرقه .. حتى عندما انسحب إلى خيمته كان غارقًا في التفكير . عرفت فيما بعد أن ـ هذا المجنون ـ جمع عشرين بعوضة من كوخ الحمى الصفراء ، ثم وضعها في كوب .. وألصق الكوب بلحم صدره .. تلقى عددًا هائلًا من اللدغات

بعد أسبوع ارتفعت حرارة (ريد) وبدأت الأعراض اللعينة تظهر عليه ..
من حسن حظه أنه تغلب على الداء الوبيل وعاش ليكتب النتيجة :
ـ « البعوض ينقل الحمى الصفراء »
هذه العبارة غيرت تاريخ الطب بالكامل ..

للمرة الأولى يبرهن أحدهم على أن الحشرات تنقل المرض ، ومن رحم هذا الكشف الخطير عرف (دونالد روس) و(مانسون) أن البعوض ينقل الملاريا .. وعرف (تيوبولد سميث) أن القراض ينقل حمى تكساس .. لقد تغيرت نظرة العلم إلى كل شيء ..

وكان هناك (بورجاس) الكوبى الذى تولى عمل برنامج مكافحة منظمة للبعوض .. لولا جهوده العظيمة لما أمكن حفر قناة بنما ....

لقد أوشك العلم على قهر الوباء ...

* * * * *

كانت هناك مشكلة دائمة فى البرازيل حين يفيض النهر .. تتحول مدينة ريو دى جانيرو إلى مستنقعات .. وتتوالد إناث البعوض بحرية . ظهر طبيب يدعى (كروز) قام بتنظيم شرطة للبعوض تلاحقه فى كل مكان ..

هكذا بدأت حرب المبيدات وحرب ردم المستنقعات ...

كانت الحمى الصفراء تنتظر اللقاح ليكون هو الضربة الأخيرة ..

إلا فى وحدة سافارى بالكونغو !!

* * *

11 ـ الشفـاء ..

الجزء التالى ليس من خطابات علاء ل(برنادت) :

أنا مريض .. أدرك جيدًا أن الصفراء عالية فى دمى .

عندما أنظر لكفى فى النور الخافت أرى اللون الأصفر بوضوح .. أنا بحاجة لمرآة لأرى اللون اللعين فى عينى ..

عندما مررت بيدى على شفتى وجدت دمًا أوشك أن يجف . أنا أنزف إذن .. شكرًا (والتر ريد) .. لقد كانت معرفتك ممتعة ، لكن العالم الآخر ينادينى كما ترى . المسئوليات !.. ثم ينهض صوت يصرخ فى داخلى : انهض !.. لن تموت !..

أنظر لزجاجة المحلول .. لا أستطيع قراءة المكتوب ..

الممرضة تدس أقراصًا فى فمى ، وتحقن سائلًا ما فى القناة الوريدية .. يمكن أن أخمن ما يستعملونه . ومن حين لآخر يظهر وجه د . (نظير) الباسم أو وجه (جولييت) :

ـ « أنت أفضل يا صاحبى .. أنت قوى »

ومن حين لآخر أرى محفة عليها جسد مغطى بملاءة وهى تغادر القاعة ، ويتعمد أحد الأطباء أن يقف أمامى حتى لا أرى ..

ـ « هل مات ؟ »

فيقول الطبيب فى ارتباك :

لا .. لا .. أشعة مقطعية ثم يعود حالا »

الصداع يفتك برأسى . ألم رهيب فى محجرى العين خلف الكرتين .. أنا واهن .. العرق يغمر الفراش.

*****

كنت هناك مع (والتر ريد) ..

كان يجلس إلى مكتبه فى الخيمة .. مكتب ميدانى بسيط وعملى جدًا .

أمامه إناء ملىء بالقهوة ومجهر وبعض شرائح .. وكومة من الأوراق ..

قال لى :

- « البعوض هو المسئول .. يجب أن نبيده .. أما الجرثومة نفسها فقد فشلت كل مرشحات البكتريا فى عزلها . أعتقد أنها كائن أصغر من البكتريا بمراحل . »

قال لى وهو ينزع عويناته الرفيعة :

- « ما أراه تحت المجهر شىء غريب .. لا يمكن أن يكون كائنًا حيًا بل هو شكل زخرفى عجيب .. لا أعرف مصدره .. »

ثم أشار لى كى أنظر وقال :

- « هلم خذ نظرة »

كان هذا التبسط غير معتاد ، فأنا فى النهاية مجرد جندى .. لكنى قدرت أن كل شىء ممكن فى الهلاوس .. وسمعته يقول :

- « أنت تهذى ؛ لهذا من حقك أن تستعمل المجهر الخاص بى »

انحنيت على العدسة وألقيت نظرة :



كان منظرًا عجيبًا .. منظرًا زخرفيًا لا يمت للطبيعة بصلة . الطبيعة دقيقة هندسيًا وبعض البلورات قد تصيبك بالحيرة لو رأيتها تحت المجهر .. لكن هذا الشكل الأنيق لا يمت للهندسة الطبيعية بل هو تم بيد إنسان ..

قال لي ريد :

ـ « تصور أن نرى هذا في أحشاء البعوض »

نظرت له في عدم فهم .. ورفعت حاجبي منتظرًا رأيه .

قال وهو يحك شاربه :

ـ « هذه رسالة لنا .. رسالة من عالم آخر تخبرنا بشيء مهم .. لكن ما هو ؟ »

تماسكت من فرط الغثيان وترنحت قائلًا :

ـ « يمكنك فهم هذا يا سيدي .. لكن بالنسبة لي .. أنا أهلوس وغير قادر على التفكير بشكل منظم »

وقبل أن يقول شيئًا كان العالم قد اسود من حولي بالكامل ، وأعتقد أنني سقطت فاقد الوعي ..

* * * * *

هكذا مضت أيام من الهلاوس ..

لكنى فى النهاية فتحت عينى فرأيت النور المتسلل من الستائر ، ورأيت وجه د . (جولييت) والمسماع فى أذنها .. كنت أتنفس بشكل طبيعى وصدرى بحالة طيبة . أدركت أننى كامل الأطراف وأننى أتمتع بحيوية ..

قلت لها هامسًا :

ـ « أنا أتحسن ! »

تنهدت فى سعادة وقالت :

ـ « بل أنت تحسنت فعلًا .. أنت قهرت الحمى الصفراء بالفعل .. »

كانت تمضى الساعات جوار فراشى .. تحكى لى أشياء كثيرة. تحكى لى عن تانت .. تقص على قصص جول فيرن لم أسمع عنها قط .. تحكى لى قصة حبها القديمة . كانت تحكى لى عن الخرافة التى انتشرت فى الوحدة والتى زعمت أنها ملعونة مشئومة تجلب النحس ..

قالت إنها تعرضت لموقفين ..

الموقف الأول أنها كانت واقفة فى الحديقة تحت نافذة .. عندما صرخت صديقتها النرويجية ، وهوى أصيص من الأزهار فى المكان الذى كانت فيه (جولييت) . بالطبع لم يجد أحد أى واحد فى الطابق الذى كان فيه الأصيص .. هناك من قذف الأصيص وفر ولو سقط على رأسها لتحول إلى فتات .

الموقف الثانى كان نوعًا من العبث فى أسلاك كهرباء غرفتها . كان هناك سلك مشحون عار ينتظر بالضبط جوار زر النور .. عندما تدخل فى الظلام تمد يدها للمفتاح فتلمس السلك العارى ..

قلت لها فى ذعر :

ـ « هذا خطير جدًا ... هم يذهبون لأى مكان ويفعلون أى شىء .. لقد وصل الأمر إلى اقتحام غرفتك إذن »

قالت ضاحكة :

ـ « الحقيقة أننى أضأت الهاتف المحمول لأبحث عن مفتاح النور .. يعتقد الأحمق أننى أمتلك حاسة توجه فراغى عالية ، لكنى فى كل ليلة أبحث عن المفتاح . كان سهلًا أن أجد السلك العارى .. وبالطبع لم نعرف من فعلها »

ـ « لا بد أن هناك طريقة .. البصمات »

ضحكت من جديد وربتت على يدى بيدها المعروقة الباردة وقالت :

ـ « الأمر لا يستحق كل هذا الضجيج على كل حال »

هكذا صمتت ..

الحمد لله .. أنا أتحسن ..

أتحسن باستمرار ..

الكفة قد مالت فصار الوباء هو المهزوم الذى يحاول التماسك أمام مناعتى ..

وعندما استطعت الوقوف أخيرًا كنت أترنح وساقاى من مكرونة . لكنى كنت أعرف أننى سأستعيد قوتى مع الوقت .. كانت أمى تقول بالعامية : « مادام العود موجود .. اللحم يجود » وهو كلام صحيح فعلا.. ما دمت أنا موجودًا فاسترداد الوزن والعافية مسألة وقت ..

وجاء اليوم الذى سمح لى فيه بمغادرة العنبر ....

اليوم الذى رأيت فيه الشمس وشممت الهواء .. اليوم الذى جربت عضلات فخذى فيه المشى من جديد .

12 - الطفرة التى كانت ..

عزيزتى (برنادت) :

أعتذر بشدة على تأخر خطاباتى لفترة طويلة . كنت منهمكًا فى مكافحة الوباء الذى اجتاح الوحدة ... أحيانًا يبدو الجلوس على الكمبيوتر وكتابة خطاب عبثًا لمن أضنته الهموم .

أرجو أن تكونى بخير وكذلك سارة العزيزة . إنها تخطر ببالى أكثر من اللازم هذه الأيام .

لا تقلقى علىّ بأى صورة .. تعرفين أننى أتمتع بمناعة طبيعية بعد كل ما عرفته فى سافارى . من الصعب أن أصاب بحمى نزفية ..

أقام لى الزملاء حفلًا صغيرًا لمناسبة يطول شرحها . كانت المشاعر دافئة وشعرت لأول مرة أننى أحبهم وأنهم يحبوننى . حتى (برتران) لوح الثلج قال إنه سعيد بوجودى ..

غنوا لى أغنية :

- « لأنه رجل طيب »

وفتحوا زجاجات الجعة التى لم أتذوقها .. لكنها جعلتهم فى حالة مرح بالغة . ونسينا مع الوقت قناع الموت الأحمر الذى يزحف هناك فى طرقات سافارى .. قصة (إدجار آلان بو) ... لقد عزل الملك نفسه عن الشعب فى قصر منيف ، لكن ضيفًا مريبًا ظهر فى القصر وراح يجول من غرفة لأخرى ،

اقترح المدير أن يمنحنى أسبوعًا إجازة ، لكنى أصررت على أن أبدأ العمل فورًا . لا شىء يمكن أن يجعل المرء يمرض ويكتئب مثل الجلوس بلا عمل ..

فقط طلبت منه بمناسبة هذا اللطف أن يسمح لى ببعض الوقت فى قسم الجراحة . لو أراد أن يدللنى فليبعدنى عن الحميات ..

ضحك كثيرًا ثم قرر أن ينتدبنى فى قسم جراحة العظام لمدة أسبوعين ..

لم يكن هذا ما أردت ، فأنا أكره طب العظام ، ثم إننى لا أريد أن أرى المزيد من (يوهان) الألمانى ، لكن ليس من الحكمة أن أستغل كرم المدير أكثر من هذا .

هكذا تجديننى أرتدى بذلة الجراحة وقد تلوثت ثيابى ولحيتى بالجبس ، وأنا أمشى بين الأَسرَّة كأننى جراح عظام عتيد .. كان هناك الكثير مما يجب أن أتعلمه .

قال (يوهان) عندما رآنى :

ـ « هل وصلت داعش **ISIS** إلى قسم العظام ؟ »

فلم أرد .. المزاح السمج لا يستحق الرد ..

راقبته وهو يعمل فأدركت أنه الشخص المناسب للعمل المناسب . بكل هذه العضلات والقامة الفارعة لا يجد عسرًا فى معالجة العظام .. وقد رأيته يُجرى جراحة تغيير مفصل فخذ ، فأدركت أنه بارع فعلًا .. لا بأس ..

* * * * *

فى ذلك الوقت بدا أن الوباء بدأ يتراجع نوعًا بعد ما حصد ١٢ رأسًا ..

بدأت الحالات تتحسن ، تقل مع الوقت .. وأدركنا أن القصة ستنتهى قريبًا ..

كان المدير ينتظر نتيجة التحليل الجينى للفيروس . إنه يحلل فى مختبرات CDC فى أطلنطا ..

بعد أسبوع جاءت النتيجة كما شرحها لى بروفسور (ناجوياما) اليابانى . طبعًا لا أستطيع ذكر التفاصيل ولا التغيرات فى جينات الفيروس ، لكن هذا الفيروس داء نتيجة طفرة جينية ، وهذه الطفرة جعلته يقاوم الأجساد المضادة التى صنعها اللقاح ..

هذه سلالة جديدة لم يعرفها العلم من الحمى الصفراء ، وهى قادرة على أن تصيب من تلقوا اللقاح .. هذا ما حدث معى طبعًا[1] . أطلق البروفسور عليها اسم YF _ Cong ..

سألت البروفسور عن سبب هذه الطفرة فقال :

- « هناك احتمالان .. الاحتمال الأول هو خلل فى عملية ترجمة الجينات وهذا يسبب الطفرات التى تورث بدورها .. هذه أشياء تحدث . يمكن لضغط اللقاح أن يتسبب فى هذه الطفرة . الحياة تبحث عن مخرج ، وكلما ابتكر العلماء مصيدة بارعة جاءت الطبيعة بفأر أذكى . الاحتمال الثانى هو أن هذه تجربة بيولوجية تمت بدقة .. أى أن هناك من يرتب لحرب بيولوجية وهذا الفيروس من إنتاجه » .

- « وهل من طريقة لترجيح أحد الاحتمالين ؟ »

(1) نسى (علاء) هنا أنه يخفى خبر مرضه عن (برنادت) . الزلق لسانه .

هز رأسه بما معناه أن هذا صعب ..

ـ « هناك أوبئة كثيرة تحوم حولها علامات استفهام .. هل جاء الإيدز من الفضاء الخارجى أم نشأ فى مختبر ما لدولة معادية ؟ أم هو طفرة حدثت فيروس يصيب القردة ؟.. أرى أن سلالة الحمى الصفراء الجديدة قد انقرضت فعلًا فلم يعد من مجال للكلام ، لكن العينات موجودة فى أطلنطا ومختبرنا لمن يريد فى المستقبل » .

قال هذا كله بفرنسية يابانية فظيعة .. فهمت بعسر بالغ ..

عنـد المسـاء جلست مـع (برتران) السـمج و(جولييت) نتنـاول العشاء فى الكافتيريا ..

قال لى :

ـ « هل أنت بخير ؟ »

ـ « من الجرم أن أكون أفضل .. »

ـ « نفتقدك فى قسم الحميات ! »

لم أجرؤ على رد المجاملة .. فأنا فعلًا سعيد بالابتعاد عن هؤلاء وعالمهم ..

قال (برتران) وهو يمهك البطاطس بالشوكة :

ـ « ماذا قال لك (ناجوياما) المسن ؟ »

رأى دهشتى فقال ببرود :

ـ « كنت تمشى معه فى الحديقة اليوم .. »

حكيت له ملخص ما حكاه لى (ناجوياما) .. فهز رأسه موافقًا وقال :

ـ « هذا الرجل فأر .. لكنه فأر ذكى .. وأصارحك أننى لا أحبه على الإطلاق »

هاهو ذا مزاجه اللعين يتدخل فى كل شىء .. ماذا تعرف أنت عن المودة ودفء المشاعر يا تمثال الرخام ؟.. رفعت حاجبى فى عدم فهم فقال :

ـ « آراؤه العنصرية لا تروق لى .. لم أحب كلامه قط .. على كل حال هو وجه جديد هنا .. لا نعرف عنه الكثير »

نظرت له فى دهشة :

ـ « وجه جديد ؟ »

ـ « جاء قبل مجيئك بشهرين .. لقد أجاد تحويل مختبر الفيروسات إلى وحدة عمل متكاملة قوية ، وأعتقد أنه يملك أجهزة ليست فى كينشاسا كلها »

هكذا اليابانيون .. فى كل مكان هم الأنشط والأكفأ .. أى جديد ؟

قال (برتران) :

ـ « لو كنت مكانك لما وثقت به لهذا الحد .. هذا الرجل مريب »





13 ـ شكوك تتراكم ..

عزيزتى (برنادت) :

فيما بعد ونحن جالسان فى الكافتيريا نرشف القهوة كريهة المذاق . كانت (جولييت) فى نوبتجية مع (نظير) .. كان (برتران) سمجًا باردًا كالعادة لكنه يقول أشياء مهمة جدًا . والحقيقة أننى مندهش من كون بعض الغربيين يملكون عواطف حارة مثلك .. هناك كثيرون ممن قابلتهم يتمتعون بهذا البرود ، ولعله نوع من التعالى العرقى .. لا أعرف بالضبط ...

قال لى (برتران) وهو يقلب السكر فى القهوة :

ـ « تصرفات الرجل مريبة جدًا »

ثم نظر حوله وقال لى :

ـ « من أتكلم عنه اسمه (آرثر ليونيل) .. كونغولى فى سن الثلاثين . زوجته اسمها (بلفى لواك) .. إنه موظف بسيط فى السكك الحديدية .. إنه وزوجته ينتميان للعقيدة الكيمبانجوية وهى عقيدة مسيحية محرفة حرمها قومى البلجيك .. لكن كثيرين هنا يمارسونها .. هذه من النماذج البسيطة التى يحرم فيها الغرب حرية العقيدة. ما علينا .. جاء هذا الرجل بزوجته وكانت تشكو من حمى غريبة وصداع وصفراء واستعداد للنزف .. كل إبرة أخذتها نزفت فى موضعها. وقد قضيت مع هذا الرجل وزوجته ساعات طويلة .. لقد لعبت معه دور الطبيب بحق ... »

لم أفهم إلام يقودنا هذا كله ، لذا فضلت الصمت ..

رشفت بعض القهوة بينما قال (برتران) :

- « كانت هذه حالة غريبة .. ما تشخيصك ؟ »

قلت على الفور :

- « حمى صفراء .. حمى نزفية .. مرض فايل .. احتمالات لا حصر لها »

- « هذا حق .. كانت حمى صفراء لكن هذا لم يخطر لنا ببال . المرأة تعاطت اللقاح منذ خمس سنوات واللقاح لا يفشل تقريبًا »

وتنهد وقال :

- « قمت بعمل التحاليل اللازمة وأرسلت عينة للمختبر كما أرسلت عينة لمختبر الفيروسات .. المهم أن المرأة بدأت تتحسن وجاء اليوم الذى وقفت فيه وشكرتنى على جهودى »

- « الحمى الصفراء قد تشفى تلقائيًا »

- « ليس هذا هو الموضوع .. »

القصة هى أنه بعد شهرين بدأت الحمى الصفراء تتفشى فى الوحدة .. الوباء يعم كل شىء ... الأسئلة كثيرة . فى ليلة كهذه مشى (برتران) فى الممر فرأى الكونغولى (ليونيل) يستوقفه ..

قال له (ليونيل) إنه قدم الكثير لزوجته وهو مدين له للأبد ؛ لذا سيقدم له اعترافًا صغيرًا يبدو أنه خطر .

- « قال لى (ليونيل) إن زوجته كانت فى حال سيئة .. وفى إحدى الليالى ظهر رجل يابانى قصير القامة ومعه طبيب من وحدة الحميات يعرفه جيدًا. قال إنه كان جالسًا جوار فراش زوجته يائسًا ، فبدا على الاثنين نوع من التردد

كأنهما فوجئا بقدومه . ثم إن الطبيب الآخر قال له بالفرنسية إنهما بحاجة إلى إجراء اختبار معين على الزوجة . قال (ليونيل) إن الطبيب أخرج أنبوبًا زجاجيًا مسدودًا بقطعة من الفللين .. فتحها فى حذر ثم ألصق فتحتها بساعد الزوجة .. تأوهت قليلًا .. لكنه استمر فى الضغط دقيقة .. ثم إنه هز رأسه موافقًا وقال لـ (ليونيل) إن زوجته ستكون بخير وانصرف الرجلان »

كانت القصة غريبة .. هناك مؤامرة لكنى بالفعل لا أتبين خيوطها ..

قال (برتران) ضاحكًا لأول مرة :

ـ « يمكنك أن تتخيل ما كان فى هذا الأنبوب إذا تذكرت تجارب روس ومانسون وريد .... »

ـ « لا أفهم »

ـ « الأنبوب كان مليئًا ببعوض الايدز إجيبتى .. لقد جعل عالمك اليابانى البعوض يمتص دم مريضة حمى صفراء .. فما السبب ؟ »

ـ « لا أعرف »

قال فى انتصار :

ـ « تلكم هى نقطة بدء الوباء .. البعوض أخذ جرعة ممتازة من الدم الملوث بالفيروس .. دم ملوث بفيروس لا يضعف أمام اللقاح .. »

كل هذا معقد جدًا يفوق قدرتى على الاستنتاج .. فقلت له غلب حمارى **beats me** بالإنجليزية ، فقال فى ثبات :

ـ « لا أعرف .. هذا سؤال مهم .. سؤال يساوى حياة الملايين .. »

ـ « هل تعنى أن (ناجوياما) يحتفظ بالفيروس فى غدد لعابية للبعوض ؟ »
ـ « أنا متأكد من هذا »
رحت أفكر .. لا بد من وسيلة للتأكد ..
قال (برتران) وقد لاحظ شرودى :
ـ « تذكر بعد قدومك بفترة .. هناك لص تسلل لمختبر الفيروسات وشعر به رجال الأمن .. تصرف بخرق وأسقط قفصًا زجاجيًا مغلقًا .. هل تحرر شيء فى الصندوق الزجاجى ؟
السؤال الثانى هو : هل ما قام به (ناجوياما) خطأ وإهمال ، أم هو مخطط مقصود ؟ »
كانت الإجابة واضحة .. نظريته تبدو معقولة جدًا ..
لكن لقد صار تفتيش وحدة الفيروسات واجبًا مقدسًا ..
قلت لـ (برتران) فى سخرية :
ـ « هل تعتقد أننا سنجد علبة مغلقة كتب عليها (فيروس الحمى الصفراء الرهيب المقاوم للقاح) ؟ »
لم يضحك وقال :
ـ « لا أعتقد هذا .. لكننا لا نعرف ما نبحث عنه .. ربما يطرح شيء نفسه .. »

* * * * *

لم تكن هناك حراسة على مختبر الفيروسات فى الليل .. لم تكن الممرضة السمجة هناك ولكن هناك رجل أمن كونغولى لطيف المعشر .. يجلس إلى الكاونتر ويدخن ويطالع مجلة . هناك فى الليل يبدو المكان كله كلغز مظلم ..

باردًا كالثلاجة تحت إضاءة النيون وهدير الثلاجات . هنا كان صخب في الصباح لكنه انتهى .. الكل رحل .. نام كل شيء .

فى ثقة دنا (برتران) من رجل الأمن .. وقال له :

ـ « مساء الخير يا زميل .. »

ـ « مساء الخير يا دكتور »

قال (برتران) بلهجة عابرة :

ـ « نسيت مسماعى صباح اليوم فى المختبر .. أرجو أن تسمح لى بالبحث عنه »

قال الرجل دون إصرار :

ـ « لا يُسمح بالدخول إلا للعاملين هنا »

كرر (برتران) الطلب :

ـ « أرجوك .. لن يستغرق البحث أكثر من ثانيتين .. يمكنك أن تأتى معنا »

قال الموظف وهو يغلق المجلة :

ـ « هذا ما سأفعله فعلًا »

واتجه ليغلق الباب الرئيس بمفتاح كان فى جيبه ، ثم أشار لنا كى ندخل .. كان هذا أسوأ سيناريو نريده ، فقد أفقد حملتنا أى معنى لها ..

رحنا نمشى بين المناضد التى تراصت فوقها المجاهر .. تذكرت مختبر الفسيولوجيا فى كليتى القديمة. كان أكثر من كمبيوتر يهدر ..

ـ « لابد أنكم صرتم حذرين بعد حادث تسلل لص هنا .. اللص الذى هشم أقفاصًا زجاجية »

قال الحارس بشكل عابر :

ـ « كان مخبولًا .. أعتقد أنه أراد سرقة مجهر غالى الثمن ، وعلى كل حال قد قُبض عليه ومات بالحمى الصفراء منذ أسبوعين ! »

تبادلت و(برتران) النظرات ..

سألته فى لا مبالاة متعمدة :

ـ « هل القفص كان هنا ؟ »

قال رجل الأمن وقد بدأ يتململ :

ـ « لا .. كان فى حجرة البروفسور ... والآن هلا انصرفتما ؟ المسماع غير موجود »

وأشار إلى باب موصد .. كتب عليه مدير الوحدة ..

تحت عبارة المدير توقفت .. رأيت شعارًا رسم بخط صغير دقيق كأنه جزء تكميلى للاسم .. فى لحظة أخرجت الهاتف المحمول والتقطت صورة للشعار برغم احتجاج الحارس ، الذى انفجر غاضبًا ...

ـ « ليس من حقك أن تلتقط صورًا هنا .. أرجو أن تنصرفا حالًا .. أنا مرتاب فى قصة المسماع المفقود هذه »

ثم عاد يسأل فى غيظ :

ـ « ما الذى تلتقط صورته ؟ »

صار من المستحيل أن نبقى أكثر ما لم نضربه ليفقد الوعى مثلًا .. لهذا أسرعنا نحو الباب بلا إجابات .. من الممتع أن تمارس شعور المطرود بعض الوقت ... لابد أنه على يقين من أننا جواسيس ..

قال لى (برتران) وهو يجدّ السير :

ـ « ما الذى التقطت صورته ؟ لقد استفززته بحق »

قلت وأنا أجدّ السير فى الممر متوقعًا أن يلحق بى رجل الأمن ليمس
الصورة :

ـ « أنا أعرف هذا الشعار .. فقط أريد وقتًا للتفكير »

* * *



14 - أوم شنريكيو ..

عزيزتى (برنادت) :

طلبت من (برتران) أن نذهب لحجرته . (يوهان) نائم عندى الآن ولا أريد أن أخاطر بأن أزعجه فينفجر فى الشتائم .. مشينا فى طرقات سافارى شاردى الذهن ..

فتح باب حجرته وسمح لى بالدخول .. هذه معجزة .. آخر شىء تصورته فى حياتى أن يسمح لى لوح الثلج هذا بدخول غرفته .

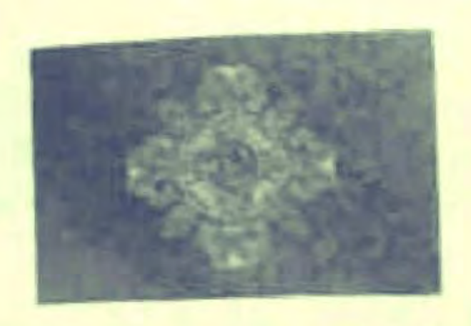
كانت الغرفة منسقة بعناية ونظيفة تذكرنى بحجرتى . أنت تعرفين أننى من أقل الرجال إتلافًا لما حولهم أو إحداثًا للفوضى . وكانت هناك لوحة عملاقة لوجه (أينشتاين) ينظر نظرة مذعورة ، وهناك مكتبة صغير مليئة بمجلات الكوميكس ، مع مجموعة من صور لفتاة باهتة لا بد أنها فتاته ..

طلبت منه أن يشغل الكمبيوتر فأخرج جهاز لاب توب صغيرًا وضعه على الفراش .. وسرعان ما كنت قد نقلت الصورة إلى جهازه وقمت بتكبيرها ..

فجأة تذكرت ...

تحت المجهر فى مختبر (والتر ريد) .. فى الدغل الكوبى مع رائحة القطريات المختمرة والسيجار والبارود .. مع البعوض والتماسيح التى تفتح فمها فى النهر ..

كنت هناك ودعانى (ريد) كى أنظر عبر العدسة .. كان ما رأيته هو هذا الشعار .. يصعب أن أنساه ..



أنا رأيت هذا الشعار قبل أن أراه ..

لا أعتقد أننى أملك أى شفافية روحية .. لا أؤمن بكون أحلامى نوعًا من الرؤى تتنبأ بما هو قادم ، ولكن اللغز ما زال قائمًا .. أنا رأيت هذا الشعار فى هلوسة الحمى ..

ضغطت على المفاتيح وكتمت خواطرى ..

فتحت البحث الصورى الخاص بجوجل .. يمكنك أن تحمل الصورة والخواجة جوجل سيبحث فى شبكة الإنترنت كلها عنها ..

قال (برتران) :

ـ « ماذا يدفعك للظن بأنك ستجدها على النت ؟ »

قلت شارد الذهن :

ـ « هذا شعار مصمم بعناية ليدل على شىء ما .. مثل صليب مالطة والنجمة السداسية والسواستيكا .. الخ .. أوقن أنه يدل على شىء ما .. »

كان جوجل قد أنهى عملية البحث ..

وعلى الفور ظهرت عبارة :

شعار أوم شنريكيو

ما هذا بالضبط ؟ من هو شنريكيو حتى يكون لأمه شعار ؟

قال (برتران) وهو يبتلع ريقه :

لقد وجدنا جحر الشيطان .. لم أتصور هذا من قبل .. الرجل وضع النقش على الباب مطمئنًا إلى جهلنا .. أو لعله نوع من التحدى ..لكننا نتحدث عن منظمة ألِف اللعينة ! »

لم أفهم عن أى شىء يتكلم . لديه خلفية قوية عن الشعار أما أنا فلا أفهم حرفًا ..

قال ألِف كما نقولها فى العربية ...بفتح الهمزة وكسر اللام .. أول حروف الأبجدية ...

فتح لى صفحة تتحدث عن أوم شنريكيو .. وتنحى ليسمح لى بالجلوس مستريحًا ، وتركنى أقرأ .. فقط جلب علبتين من المثلجات من ثلاجة صغيرة بارتفاع وحجم الغسالة الأوتوماتيكية . وجلس على الفراش يراقب تعبيرات وجهى .

*****

لم أكن حتى تلك اللحظة أعرف أن أوم شينريكيو هى المنظمة الإرهابية المسئولة عن حادث السارين فى مترو الأنفاق بطوكيو ، وهى من أقذر العمليات الإرهابية فى التاريخ .

هذه الجماعة المخبولة تنتمى لعالم المؤامرات التى لا تكف عن اتهام الماسونية اليهودية العالمية . أعتقد أن الماسونية وفكرة المهدى المنتظر هما سبب اكتظاظ المصحات العقلية فى العالم .

مؤسس الجماعة نبى كذاب اسمه (آساهارا) .. كانت لدى هذا الرجل نظريات مخبولة لها علاقة بالبوذية والهندوسية .. وكان يتلذذ بفكرة نهاية العالم (هرمجدون) والمحرقة ، وقد مزج تخاريفه بسفر الرؤيا المسيحى لذا اعتبر نفسه تجسيد المسيح اليابانى .

الفكرة هنا ـ حسب كلامه ـ أن (هرمجدون) قادمة لا محالة ولسوف يموت الكل عدا المؤمنين .. وقد قال الرجل إن موعد (هرمجدون) هو ١٩٩٧ .. لا أعرف لماذا يختار هؤلاء الأنبياء النصابون مواعيد قريبة بهذا الشكل تفضح كذبهم . لو كنت مكانه لاخترت ٢٠٥٦ ..

أطلق المؤسس اسم (أوم شينريكيو) على الجماعة السرية ، وهى كلمة تعنى (الحقيقة العليا) ..

فى العام ١٩٩٥ فى ٢٠ مارس قرر النبى النصاب أن يبدأ عملية تدمير العالم .. فكانت حادثة قطار المترو .

كانت الفكرة بسيطة .. هناك أكثر من بالون ملىء بالسارين فى أكثر من حقيبة بلاستيكية فى عدة عربات مترو .. عند ساعة الصفر يقوم كل منفّذ بثقب البالون بنهاية مظلة من ثم يتسرب السارين ، بينما يثبت هو القناع على أنفه ويفر . لم تنجح المؤامرة جدًّا لكنها قتلت ١٢ شخصًا وآذى غاز السارين نحو ألف . لو كان مقياس العمليات الإرهابية هو « الإرهاب » فقد نجحت العملية جدًّا . السارين يتصرف بالضبط كمبيدات الحشرات .. لهذا ظن الأطباء أولًا أن هذه حالات تسمم مبيد حشرات .

كانت هذه هى الضربة التى قضت على الجماعة وجعلت الشرطة تستأصلها . كانت لديها مفرقعات وأسلحة بيولوجية ومصل الحقيقة وملايين الدولارات .. وكان هناك عالم كامل تحت الأرض عند سفح جبل فيوجى .. بل كانت هناك زنازين بها أسرى .

بعد هذا وجد رجال الشرطة عددًا لا بأس به من قنابل السيانيد فى مترو الأنفاق .

تم القبض على (آساهارا) مختبئًا داخل جدار ووجهت له تهم عديدة بالقتل وحكم عليه بالإعدام .

برغم كل الأدلة لم تعترف المنظمة قط بتدبير حادث المترو .. وحتى اليوم .

فى العام ٢٠٠٠ غيرت المنظمة اسمها إلى (ألفِ) .. ويقودها ابنا (آساهارا) .

اليوم أجد شعار هذه المنظمة في مختبر فى الكونغو فى ظروف كهذه ..

لا بد من تفسير ..

هل لديك واحد يا (برتران) ؟

*****

قال (برتران) :

ـ « يمكننا بلا خطأ كبير أن نقول إن البروفسور عضو فى منظمة أوم شينريكيو . لم يكن لدى المنظمة أى جناح مسئول عن الحرب البيولوجية لكنه احتضن الفكرة طويلًا .. »

خرج الغرب ليظفر بالمنظمة بعد هجمة المترو .. هكذا لم يعد للمنظمة نشاط يذكر وتحولت إلى ألف مبهمة النشاط. أما الرجل فاستمر فى أبحاثه وهاجر إلى الكونغو حيث أهلته دراسته لقيادة هذا المركز المهم .. مركز فيروسات فى قلب أفريقيا ..

لكن الصيد الثمين كان فى الطريق . حالة حمى صفراء ظهرت فى المركز .. مريضة تدعى (بلفى لواك) . من المؤكد أن المريضة تعانى حمى صفراء ، بينما هى تؤكد أنها تعاطت اللقاح. نحن إذن نتكلم عن سلالة متطفرة من فيروس الحمى الصفراء استطاعت أن تفلت من ضغط اللقاح ..

هناك طرق فيروسية معقدة للاحتفاظ بهذا الفيروس ، لكن أسهل طريقة هى أن يمتص بعض البعوض دم هذه المرأة ويتكاثر الفيروس فى بطنه بطريقة التقدم الحيوى .

الآن يمكنك أن تضع البعوض فى حضّانة وتجرى ما شئت من أبحاث ..

يومًا ما ستكتمل أبحاثك ، عندها يمكن أن تبدأ حربًا بيولوجية تقضى على العالم بسهولة تامة ..

لربما كانت فكرة المحرقة تلح عليه بشكل دينى ، ولربما كانت مجرد تجارة .. لأن لهذا الفيروس مشترين كثيرين ...

المهم إن تعليمات (آساهارا) قد خُلقت لتستمر من خلالك أنت ...

لكن الحياة لا تتحرك بهذه السلاسة .. المخططات المحكمة تفشل بسهولة ..

بتسلل لص غبى إلى المختبر .. لا تسأل عما يتوقع الأحمق أن يظفر به فى مختبر فيروسات . فقط هشم القفص الحضانة الذى يحوى البعوض ، وقد تلقى لدغة قاتلة دفع ثمنها فيما بعد ..

أما عن البروفسور فقد أدرك ما حدث وأدرك مقدار الهول الذى تحرر ..

أعتقد أنه كان يتعاطى الريبافيرين بجرعات هائلة ، وهى سياسة لم تنجح مع الحمى الصفراء قط .. لكن لنقل إنها حمته من الإصابة بالمرض الذى تسبب في نشره ...

بدأ الوباء ينقشع وأعتقد أن معظم البعوض قد هلك فى حملات الإبادة ، ما لم يكن قد نقل العدوى لحيوانات برية ..

لكنى موقن الآن من شىء ملموس .. هذا اليابانى عضو فى منظمة (شينريكيو) .

***



عزيزتى (برنادت) :

فرغ المدير البروفسور (آرثر برسين) من سماع قصتى أنا و(برتران) وصب لنفسه القهوة أربع مرات ، ثم تبادل النظر مع (آن ليراى) نائبته .. كانت عيناه البيضاوان تتسعان مع كلامى ، والحقيقة أن بياض عيون السود يخالطه لون أصفر غالبًا ..

كانت (آن ليراى) تدخن بلا توقف وهى تتابع الكلام ، فلما انتهينا و(برتران) من سرد القصة ، تساءلت :

ـ « كل هذا جميل .. هناك طبيب إرهابى معنا فى الوحدة .. هذا ما تلمحان له »

قلت فى غيظ :

ـ « أنا لا ألمح .. أنا أتهم .. على رأى (إميل زولا) »

قال (برسين) :

ـ « لا يوجد دليل ملموس على حرف مما تقولان »

قلت فى عناد :

ـ « ثمة طبيب يابانى يضع شعار جماعة إرهابية على بابه .. فى رأيى أن هذا كاف .. أنا لا أتعامل ببراءة مع من يعلق صليب سواستيكا النازى »

وأضاف (برتران) :

ـ « ولدىَّ شاهد على أنه أجرى تجارب من دون إذن رئيس الوحدة ومن دون موافقة المريض .. تجارب على مريض حمى صفراء »

وقفت (آن ليراى) ووضعت قبضتيها فى خصرها ، وبدت موشكة على الشجار ، وقالت :

ـ « لا يمكن أن أفصله من الوحدة بناء على كلام مجازى كهذا .. »

ـ « نحن لا نفكر فى فصله .. نحن نتكلم عن إلقائه فى السجن !! »

كانت تتعامل كأنها ترى مخبولين أمامها .. ولا شك أنها قالت لنفسها إن وباء الحمى الصفراء الذى أصابنى لم يرحل دون خسائر .. فى عقلى .

كانت القضية واضحة فى ذهنى .. كل هؤلاء الذين ماتوا بسبب البروفسور .. إنه قاتل .. صحيح إنه قاتل على نطاق واسع ، وهؤلاء يميل العالم إلى تبرئتهم كما برأ قتلة (هيروشيما) ، لكن هذا لا يمنع أنه يجب أن يدفع ثمن الساعات السود التى قضيتها أهلوس مع (والتر ريد) ..

كنت أفكر فى (والتر ريد) ..

حتى فى الرؤيا تدخل .. لمَّح لى بالإجابة بما أنه يخترق الأزمنة والمسافات .. كأنه تعهد أمام نفسه بمحاربة الحمى الصفراء فى كل الأزمنة والبلدان ..

هناك بالطبع التفكير المادى العادى : أنا رأيت الشعار أثناء زيارتى الأولى للمختبر وتكفل خيالى بأن يقحمه فى الحلم .. اللاوعى يعبث بى بطريقته المعروفة .

هذا احتمال ثان لا بأس به ..

كان (برسين) عمليًا مباشرًا كما كونت انطباعى عنه .. ضرب المنضدة

ـ « سوف نحل المشكلة بشكل عملى .. »

ـ « مثل ؟ »

ـ « لو كان هو من خلق هذه السلالة فلا شك أنه يحتفظ بعينة منها .. لن يدع السلالة تنقرض من دون الاحتفاظ بعينة . لهذا أرى أن نقوم بعملية تفتيش مفاجئة لوحدة الفيروسات ولمسكنه »

كان هذا هو الحل الوحيد فعلًا . هناك استجواب الرجل لكن ليس هذا أنسب وقت لذلك ...

قالت (آن ليراى) وهى تدفن لفافة التبغ فى المطفأة .. (أشعر أنها تطفئ السيجارة فقط كى تتمكن من إشعال سيجارة أخرى) :

ـ « أقترح أن نخبره أولًا وإلا رفع علينا دعوى قضائية ... »

صاح (برتران) محتجًا :

ـ « لكن هذا بمثابة إنذار له .. »

ـ « لا يوجد حل آخر .. أنا أرى الصورة كاملة ولن أقضى بقية حياتى أدفع تعويضات .. »

قلت متوسلًا :

ـ « هل لنا أن نحضر التحقيق ؟ »

قال المدير فى صرامة تدل على أن من يعترض قد انتهى أمره :

ـ « بالطبع لا .. هذه قضية إدارية .. »

وبدا من الصمت انه ليس بوسعنا عمل شيء ....

*****

فى اليوم الثانى ساد الصمت الوحدة ..

قالت لى (جولييت) وهى تفحص إحدى حالات الالتهاب الرئوى :

ـ « هل سمعت الأخبار ؟ »

ـ « أى أخبار ؟ هناك الكثير منها .. هناك زلزال فى نيكاراجوا وسيول فى بنجلاديش »

قالت ضاحكة :

ـ « ليس هذا النوع من الأخبار .. أتكلم عن أخبار الوحدة .. هل عرفت أن البروفسور (ناجوياما) اليابانى مدير وحدة الفيروسات .... »

ـ « انتحر ؟ »

كانت هذه إجابة تقليدية بديهية ، لكنها قالت وهى تهز عنقها النحيل :

ـ « بل اختفى .. يبحثون عنه .. »

كان هذا أغرب خبر توقعته ...

الرجل لم ينتظر ليقاتل .. كنت أتوقع أن ينكر ويقدم أدلة ويخرب بيتى ...

تركتها من دون تفسير ورحت أركض فى الممرات حتى وصلت إلى مختبر الفيروسات ببابه الزجاجى الغليظ صعب الفتح .. كانت الفوضى فى كل مكان .. رجال شرطة سود ورجال أمن .. وموظفون ... اخترقت الزحام فكانوا يوقفوننى فى شك فأردد :

ـ « أنا أعمل هنا .. »

فى النهاية وجدت المدير يقف مع (آن ليراى) .. كان قد فتح المعطف وراح يحاول أن يريح كرشه الغليظ قليلًا .. يبدو أنه انتفخ من القولون العصبى ... الجدية والخطورة والصرامة على ملامحه .

كانت هناك ثلاجة كبيرة مفتوحة .. وعلى الأرض وجدت شظايا زجاج كثيرة ..

قال لى عندما رآنى :

ـ « خذ الحذر .. البعوض فى كل مكان .. »

لم أفهم .. فى هذه اللحظة ظهر فتى يحمل أسطوانة على كتفه ويضع قناعًا ضد الغاز ، وراح يرش كل شىء بما فيه نحن ..

الدخان .. السعال ... قطرات ندى تتكاثف على كل شىء ..

ـ « هذا سيفين .. لا تتنفس بعمق »

كنت أحاول فهم ما يحدث فقال لى المدير وهو يكتم أنفاسه :

ـ « أخبرته أمس بشكوكنا .. اليوم هو مختف.. لم يظهر فى وحدة الفيروسات .. وعندما فتحنا المكتب وجدنا هذه الثلاجة المعطلة مفتوحة . واضح أنها كانت تحوى قفصًا زجاجيًا وقد قام بتهشيمه لينشر البعوض فى الوحدة »

صحت فى رعب :

ـ « رباه !.. إذن كان يحتفظ بالبعوض القاتل »

ـ « وكان يقدم له الفئران ليتغذى .. المشكلة الآن أن البعوض تحرر »

وسط الدخان الخانق قالت (آن ليراى) فى حزم :

ـ « لقد عزلنا هذا القطاع إلى أن ينتهى الرش .. »

سألتها فى ارتباك :

ـ « وماذا عن غرفته ؟ »

ـ « هناك فريق سيقتحمها الآن .. واضح أن (ناجوياما) فر من الوحدة .. »

كان هذا الانتقام الأخير للبروفسور المجنون .. فشلت خطته فقرر أن يهدم المعبد على رأس الجميع ..

هنا تذكرت شيئًا فصحت :

ـ « لا تدخلوا غرفته قبل أن .... »

ـ « قبل أن ماذا ؟ »

ـ « أين غرفته ؟ »

وقبل أن ترد رحت أركض عبر الممرات .. ولا شعوريًا اتجهت إلى الجناح الشرقى حيث مساكن الأطباء الكبار .. كانت (آن) تحاول اللحاق بى راكضة . هناك أمام باب غرفة وقف عدد من رجال الأمن يقرعون الباب .. وبدا واضحًا أنهم سيحطمون الباب ...

قلت لهم متوسلًا :

ـ « لا بـد مـن دخـول هذه الغرفة من النافذة .. لا أريد أن يستعمل أحد الباب »

نظروا لى فى عدم فهم .. من أنت كى تصدر الأوامر ؟

لكن (آن ليراى) صاحت بشخصيتها القوية طالبة أن يمتثلوا ..

قلت لرجل الأمن :

ـ « أعتقد أن هناك شركًا وراء الباب .. الرجل مجنون .. »

فكر رجل الأمن ثم اقترح أحدهم استعمال الإفريز القادم من الغرفة المجاورة وتهشيم النافذة من الخارج ...

بدأ التنفيذ .. من فعل هذا كان رجلًا رشيقًا صغير الحجم أقرب للفراشة .. اختفى فى الغرفة المجاورة .. حبسنا أنفاسنا .. بعد دقائق سمعنا صوت تهشيم الزجاج ... ثم سمعناه يشهق ....

بعد لحظات طويلة انفتح الباب ... ودخلنا .

كان يقف وسط الغرفة حاملًا قارورة زجاجية كبيرة .. فارغة تقريبًا إلا من سائل أصفر رائق . وقال لنا :

ـ « هذا كمين من نوع ما .. لقد وضعها فوق الباب بحيث تسقط فوق من يفتح .. وأعتقد أنه فر من النافذة بدوره وأغلقها خلفه .. كانت القارورة ستنفجر فيمن يحاول فتح الباب »

قالت (آن ليراى) وهى ترتجف :

ـ « حافظ على هذه القارورة .. سوف نحلل ما فيها »

قلت فى ملل :

ـ « حتى من قبل التحليل .. أؤكد لك أنها تحتوى غاز السارين ! »

*****

لقد فر (ناجوياما) ..

هل هو فى الكونغو أم دفع مالًا لبعض المرتزقة كى يهربوه عبر الحدود ؟

لا أعرف الإجابة ، لكنى متأكد من شىء واحد : لا بد أن فى جيبه قنينة صغيرة مثقوبة بها بعض البعوض .. بعوض برىء المنظر لكنه يحمل وباء لا قِبل للبشرية به .

هل يستعمله لمتعته الشخصية أم يبيعه لدولة ما ؟

للأسف هذه أشياء لا نملك جوابها فى سافارى .

د. علاء عبد العظيم

كينشاسا

« تمت بحمد الله »

